



Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



7

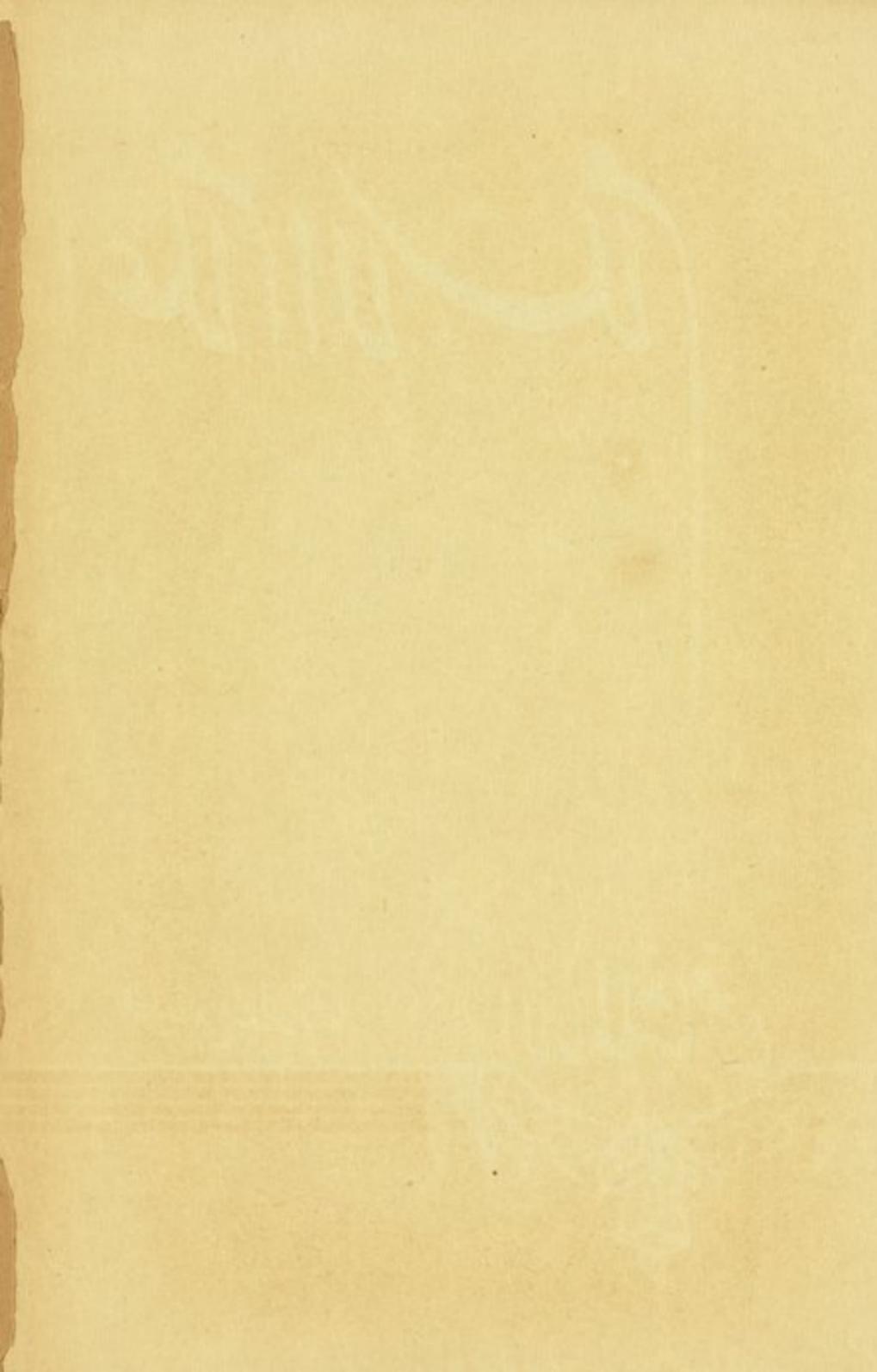
8

9

*

3

1



أعلام الأئمة

الأمام الشافعى

مصطفى عبد الرزق



45-39141

Ph20-20-40 Halaby
7/7/43 بجهة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

C 346

الامام الشافعی

مصنفو عبد الرزق بنها

Al-Azhar Library
VII 1290 VIII 1
1993 AD

مكتبة الازهار والتراث العربي
دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع
عيسى البشبيسي الحلباني وشريكه

893.799
Sh 134

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الشافعى وأضع أصول علم الفقه -

الشافعى هو أحد الأئمة الأربع الفقهاء : أبي حنيفة النعيم بن ثابت الكوفى المتوفى سنة « ١٥٠ - ٧٦٧ م » ، وأبى عبد الله مالك بن أنس الأصبجى المدنى المتوفى سنة « ١٧٩ - ٧٩٥ م » ، وأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المكى المتوفى سنة « ٥٢٠ - ٨٢٠ م » ، وأبى عبد الله أحمد بن حنبل البغدادى المتوفى سنة « ٢٤١ - ٨٥٥ م » .

وهو لاء الأئمة هم الذين استقرت مذاهبهم في الفقه الإسلامي بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام ، وتلاشى ما عداها من المذاهب كذهب « الحسن البصري » المتوفى سنة « ١٦١ - ٧٧٧ م » ، ومذهب « سفيان الثورى » المتوفى سنة « ١٦١ - ٧٧٧ م » ، ومذهب « عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى » المتوفى سنة « ٥٢٤ - ٨٥٤ م » ، ومذهب « محمد بن جرير الطبرى » المتوفى سنة « ٣١٠ - ٩٢٢ م » .

وطالت مدة المذهب الظاهري الذي أسسه «داود بن على الأصفهاني» المتوفى سنة «٥٢٧٠ - ٨٨٣ م.» وزاحم المذاهب الأربع، ودرس بعد القرن الثامن.

والتنافس بين المذاهب الأربع على الغلبة والانتشار والسلطان قد يرجع إلى عهودها الأولى، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم. ولئن كان هذا التنازع قد أدى في بعض الأحيان إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة، فإنه في أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكري، وتسابق إلى الإتقان والكمال في البحث العلمي.

فإن أهل كل مذهب كانوا لا يفتؤون يتفنون في جعل مذهبهم ميسراً لأفهام الناس وأذواقهم، متسعاماً لما يتجدد من حاجتهم، متميزاً باطف الاستنباط وحسن التخرج، وكثرة الجمع للمسائل، وجودة التأليف، حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلي العظيم في الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التي لا يخفى عددها، وبما في كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع.

لا جرم كان التراث الفقهي الإسلامي من أنفس ما ادخل البشر من مباحث المتفقين.

ولا نزاع في أن لأشخاص واضعى المذاهب أثراً في رواج مذاهبهم

وإقبال الناس عليها ، وتعلبها على ما عدتها .

وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم^(١) .

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربع لنشر مذاهفهم

والدعوة لها : وضع المصنفات في مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب ، وفي الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم ، ويبين مزايا مذاهفهم .

وقد تفرد الأئمة الأربع بكثرة ما دون من المؤلفات في تراجمهم حتى

ليقول « أبو زكريا النواوى » المتوفى سنة « ٦٧٦ - ١٢٧٧ م » في شرحه

للمذهب المسمى بالمجموع : « وقد أكثر العلماء من المصنفات في مناقب

الشافعى رحمة الله وأحواله من المتقدمين كداود الظاهري وآخرين ، ومن

المتأخرين كالبيهقي وخلاق لا يحصون » .

(١) نقل ابن حجر عن زكريا الساجي ، أنه سمع هارون بن سعيد الآيلى يقول : ما رأيت مثل الشافعى ، قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قربنا فعنده وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجهها ، فلما تكلم مارأينا أحسن كلاما منه ، فافتتنا به . ص ٥٩ .

وأخرج الآبرى من طريق الربيع قال : لما قدم الشافعى مصر وقد في مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق : عبد الله بن عبد الله بن عبد الحكيم ونظراوه ، وكان الشافعى حسن الوجه والخلق ، سُفِّب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان . ص ٦٢ .

ويقول أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشافعى المعروف بابن الملقن
في كتابه « العقد المذهب في تاريخ المذهب » المؤلف في القرن الثامن
المجرى : « وترجمة الشافعى حذفناها في هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفاً
فبلغت نحو أربعين مؤلفاً » .

على أن كثرة هذه المؤلفات وإن وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها
تقوم في الغالب على العصبية لإمام على إمام ، فلا تخلو من سرف في المدح
وسرف في الذم ، وجدل فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من
الهبات ، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان ، وعلى الأحلام
والرؤى .

ومن أمثلة ذلك : ما ورد في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان
لحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزار الكردي صاحب الفتاوى البازية
المتوفى سنة « ١٤٢٣ - ٨٢٨ م » من عقد فصل لصفة الإمام في التوراة .
وقلما تجد كتاباً في مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له
في المنام وما رأى له .

نعم لكل ذلك وزنه ودلالته في نظر الباحث ، لكن التعمى لهذه
المقالات في مصادرها ، والمقارنة بين رواياتها المختلفة ، واعتبار حجج المثبتين لها
والمزيفين - مما لا يدخل في غرضنا ولا يتسع له المقام .

غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعى في تكوين
العلم الإسلامى .

ولما كان وصف الأثر العلمى للإمام يستدعي تصوير شخصيته الذى صدر
عنها هذا الأثر ، فإنى أجعل هذا البحث قسمين :

ا — ما يتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه من نشأته وسيرته .

ب — ما يتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم «أصول الفقه» .

وأتناولهما على هذا الترتيب .

نشأة الشافعى وسيرته

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر التزى المالكى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فى كتابه «الانتقاء»، فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء: مالك، والشافعى، وأبي حنيفة رضى الله عنهم: لا خلاف علمنا بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب، وأهل الحديث والفقه، أن الفقيه الشافعى رضى الله عنه هو محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيدة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ابن قعى بن كلاب بن مررة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة. ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف بن قعى، والنبي صلى الله عليه وسلم «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف». .

والشافعى محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وإلى شافع ينسب، وقد تقدم أنه شافع بن السائب بن عبيدة بن عبد يزيد بن هاشم

ابن المطلب بن عبد مناف بن قصى .

فالنبي صلى الله عليه وسلم هاشمى ، والشافعى مطابى ، وهاشم والمطلب
أخوان ابنا عبد مناف ، ولعبد مناف أربعة بنون : هاشم والمطلب ونوفل
وعبد شمس - (ص ٦٦). وهذا الذى لم يكن يعرف فيه ابن عبد البر خلافا
من نسب الشافعى قد حدث فيه الخلاف .

قال نصر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ - ١٢٠٩ م في

كتابه في مناقب الإمام الشافعى :

«وطعن الجرجانى، وهو واحد من فقهاء الحنفية، في هذا النسب، وقال :
إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعى رضى الله تعالى عنه من
قريش ، بل يزعمون أن شافعا كان مولى لأبي هب فطلب من عمر أن يجعله
من موالى قريش فامتنع ، فطلب من عثمان ذلك ففعل ، فعلى هذا التقدير
يكون الشافعى رضى الله تعالى عنه من الموالى لا من قريش ». ص ٥ .

وعرض الرازى للرد على هذه الدعوى بما لا نرى حاجة للاطالة فيه، مادام
صاحب الطعن يعزوه إلى أصحاب مالك ، وقد نقلنا عن إمام من أئمة المالكية
ما ينقض هذه الدعوى التي يقول في أمرها الرازى : «واعلم أن الجرجانى
إنما أقدم على هذا البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالى،
إلا أنهم اختلفوا في أنه كان من موالى العترة أو من موالى الحليف والنصرة ،

وطال كلامهم في هذا الباب. وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البعث، وما مثله
فيه إلا كذا قال الله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُّصْمِّمٌ
نُورِهِ وَلَوْكَرَةَ الْكَافِرُونَ ». ص ٧ و ٨.

وقد يكون أصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادي في ترجمته
للشافعى ، من أنّ أم شافع أم ولد .

فالشافعى من جهة أبيه قرشى مطلا بي ، ليس في ذلك نزاع يقام له وزن ،
وإن كانت أم جده ليست من العرب .

وقد ذكر الكثيرون من ترجم للشافعى : أن جده السائب أسلم يوم بدر ،
وكان صاحب راية بنى هاشم مع المشركين ، فأسر فقدم نفسه وأسلم . وروى أنه
اشتكى فقال عمر : أذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد فإنه من قريش . وقال
النبي صلى الله عليه وسلم : حين أتى به وبعممه العباس : « هذا أخي » .
أما ابنه شافع فلقى النبي وهو متعرّع .

فالسائب بن عبيد صحابي ، وابنه شافع صحابي ، وأخوه عبد الله بن
السائب والى مكة صحابي .

وروى ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م
في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » عند الكلام على عبد يزيد بن هاشم
بن المطلب ، روایات قال على أثرها :

« وعلى هذا فيكون في النسب أربعة أنفس في نسق من الصحابة : عبد يزيد ، وولده عبيد ، وولده السائب بن عبيد ، وولده شافع بن السائب ». .

ج ٨ ص ١٩٣ .

ويظهر أن بيت الشافعى كان بيت حكم وعلم في مكة . فقد رأينا أن عبد الله بن السائب أخا شافع بن السائب كان واليا لمكة .

وقال ابن حجر العسقلانى في كتابه « توالى التأسيس بعمالي ابن إدريس » : « وأما عممان بن شافع فعاش إلى خلافة أبي العباس السفاح . وله ذكر في قصة بني المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الحنس وإفراده لبني هاشم ، فقام عثمان في ذلك حتى رده على ما كان عليه في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ». ص ٤٥ .

وذكر ابن عبد البر ، فيمن أخذ عن الشافعى علمه من أهل مكة ، أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع ، قال : « وهو ابن عميه ، وروى أيضاً عن ابن عيينة وغيره ، وكان ثقة حافظاً للحديث ولم ينتشر عنه كثیر شيء في الفقه ، وكان منشئه بمكة ، وتوفي بها سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وحدث عن جماعة ». ص ١٠٤ .

ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعى إلا أنه كان رجلاً حجازياً قليلاً ذات اليد ، وأنه خرج مهاجراً من المدينة حين ظهر فيها بعض

ما يكرهه ، أو خرج من مكة إلى الشام حاجة ، في رواية أخرى ، وأقام بعزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين ، ثم مات بعد مولد الشافعى بقليل .

أما أم الشافعى فهى أزدية في أرجح الروايات ، وهى الرواية المشهورة المعروفة إلى الإمام نفسه . وذكر بعض المؤرخين أن كنيتها « أم حبيبة الأزدية » .

ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعى هي فاطمة بنت عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

وقيل : فاطمة بنت عبد الله الحضن بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي . وقالوا : إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبي طالب والشافعى .

ورجح هذا القول ابن السبكي في كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » . لكن الفخر الرازى يرى : أن هذا القول شاذ . ويقول ابن حجر العسقلانى : إنه لم يثبت ، ويرده كلام الشافعى نفسه . قال ابن السبكي : « والله درها ، من أى قبيلة كانت ! » .

قال ابن حجر : « ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعى من الحدق ، أنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى مع رجل ، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأةتين ، فقالت له أم الشافعى : ليس لك ذلك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى

يقول : «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُ فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا أَلْخَرَى». فرجع القاضى لها في ذلك . وهذا تفريع غريب واستنباط قوى » .

ولو أن أم الشافعى كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط لعرف التاريخ على الأقل اسمها، وعرف أين وافاها حمامها وفي أى زمان^(١) . هذه السيدة التي يختلفون في نسبها ويختلفون في اسمها هي التي كفلت طفلها يتيمًا غريباً فقيراً ، ولم تزل ترعاه بعنایتها وتتولاه بهذه رحمة حتى أصبح بين المسلمين إماماً .

خرج إدريس بن العباس والد الشافعى من مكة مهاجرًا ، يفر من الظلم ، أو يفر من الفقر ، أو يفر من كلِّهما ، وقد يكون في طريقه إلى فلسطين أقام في المدينة زمناً ، فقال بعض الرواة : إن هجرته كانت من المدينة ثم نزل في غزة أو في عسقلان - وها ثغران من ثغور فلسطين متجاوران ، وعسقلان هي المدينة - وآقام هناك مع زوجه التي وضعت له طفلًا ذكرًا لم يكدر يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه .

(١) في كتاب «الكتاب الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة» تأليف شمس الدين محمد بن الزيات : « ويقولون (عن قبر من القبور) به أم الإمام الشافعى وليس ب صحيح فإنها بمكة . قال المؤلف عفـا الله عنه : دفنت فاطمة أم الإمام الشافعى بمكة . وهو الأصح » .

هذا مولد الشافعى ، ولا خلاف بين الرواة في أن الشافعى ولد « سنة ١٥٠ هـ »، وهي السنة التي مات فيها أبو حنيفة على الصحيح ، كما ذكر ابن حجر وغيره^(١).

والمروي عن الشافعى : أنه قال : إنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، من غزة أو عسقلان .

وفي كتاب « معجم الأدباء » لياقوت : « وف رواية أن الشافعى قال : ولدت باليمين نحافت أمى على الضياعة ، فحملتني إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك . وتأويل بعضهم قوله « باليمين » بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمين ، وببلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمين وبطونها .

قلت : وهذا عندى تأويل حسن بن سعيد الرواية ، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع ». ج ٦ ص ٣٦٨ .

ويقول ابن حجر في « توالى التأسيس » ص ٤٩ : « والذى يجمع الأقوال

(١) وفي كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبي محمد عبد الله بن أسد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعى الشافعى اليمى ثم المكى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ : « وقلت : وبيننا وبين الحنفية مقاولة على سبيل المزاح ، ففهم يقولون : إمامكم كان حفريا حتى ذهب إمامنا ، ونحن نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم ». ج ٢ ص ٢٥ . وهكذا يزح المتفقهون .

أنه ولد بغزة عسقلان ، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن ، لأنها كانت أزدية ، فنزلت عندهم ، فلما بلغ عشرًا خافت على نسبه الشريف أن يُنسى ويُضيع ، فخواته إلى مكة » .

وليس من رأي التوفيق بيت الروايات المتضاربة قويّها وضعيفها على هذا الوجه ، فتلك طريقة ليست من التحقيق التاريخي في شيء ، بل يجب تخيير الروايات الصحيحة السندي ، التي يرجحها ما يحفّ بها من القرائن . والذى تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعى ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبي عليه السلام ، ثم حملته أمه إلى عسقلان وهى من غزة على فرسخين أو أقل . وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها . وكان يقال لها: « عروس الشام ». وفي كتاب « أحسن التقاسيم » المقدس المعروف بالبشارى : « أن خيرها دافق ، والعيش بها رافق » .

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأئمّة الفقيرة تختارها سكناً لها ولطفلها اليتيم الغريب .

فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يتحمل السفر حملته أمه إلى مكة ؛ لينشأ بين قومه من قريش ، ولعلها كانت ت يريد أن تستعين على

تكليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوى القربي ، باعتباره مطابقاً^(١).

(١) ويظهر أن أم الشافعى كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبيه والشعور بقوميته ، وقد نشأ الشافعى غير خلو من هذه النزعه حتى لقد اتهم بالتشيع . ويقول صاحب الفهرست : وكان الشافعى شديداً في التشيع ، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها ، فقال له : خالفت على بن أبي طالب (رض) فقال له : أثبتت لي هذا عن على بن أبي طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله . وحضر ذات يوم مجلساً فيه بعض الطالبين فقال : لا أنكلم في مجلس بحضور أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل . ص ٢٧٩ .

وذكر ابن حجر في رواية أن الشافعى كان يقول : على بن أبي طالب ابن عمى وابن خالى . فأشار الشافعى بذلك إلى أن أم جده الأعلى السائب بن عبيدة « الشفاء » بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف ، وأمها « خلدة » بنت أسد بن هاشم أخت « فاطمة » بنت أسد والدة على . ففاطمة أم على بن أبي طالب خالة إحدى جدات الشافعى ، فأطلق علىها خالته مجازاً . (ص ٤٦) .

وفي كتاب الانتقاء لابن عبد البر : « قيل للشافعى : إن فيك بعض التشيع . قال : وكيف ؟ قالوا : ذلك لأنك تظهر حب آل محمد . فقال : يا قوم أم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وقال : « إن أوليائي من عترتي المتقوون » فإذا كان واجباً على أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقوين . أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقوين . لأنه كان يحب قرابتة وابنه . وله أبيات منها :

على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليعرفه من عيشه فنشأ في قلة من العيش ، وضيق حال . قال الرازى : « وذكروا أن الشافعى رضى الله عنه كان فى أول الزمان فقيرا ، ولما سأله إلى المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم ، وكان المعلم يقصر فى التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعى رضى الله عنه يتلقف ذلك الكلام ، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى رضى الله عنه يعلم الصبيان تلك الأشياء ، فنظر المعلم فرأى الشافعى رضى الله عنه يكتفى من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه ، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن كله لسبعين سنة - ص ١٥ و ١٦ ^(١) »

(إن كان رضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى) ص ٩١
ونقل الرازى : أن رجلا قال لابن حنبل : يا أبا عبد الله إن يحيى بن معين وأبا عبيدة ينسبان الشافعى إلى التشيع . فقال أحمد : لا أدرى ما يقولان ، والله ما رأينا منه إلا خيرا . ثم قال لمن حوله : اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئاً وحرم قرناوه وأشكاله حسدوه فرموا بما ليس فيه ، وبئست هذه الخصلة في أهل العلم : ص ٣٤ .

وإذا صاح أن الشافعى كان لا يخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولا متعصبا ، وليس أدل على ذلك من أن زوجه كانت عنانية .

(١) وقد كان الشافعى يجيد حفظ القرآن ويكثر من تلاوته وتدبره ، (١١ - ٢)

ويروى عن الشافعى : أنه كان يحدث عن طفولته فيقول : « وكانت نهمتى في شيئين : في الرمى ، وطلب العلم . فنأت من الرمى حتى كنت أصيـب من عشرة عشرة ». وفي رواية من عشرة تسعـة . وسكت عن العلم » فقال له بعض من كان يستمع إليه : أنت والله في العلم أكثـر منك في الرمى .

وروى عن الربعـع أن الشافعى كان يختـم القرآن في كل شهر ثلاثة ختمـة ، وفي شهر رمضان ستـين ختمـة . ختمـة بالليل ، وختـمة بالنهار . الرازى ص ١٢٤ ويروى أنه كان يقرى الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاثة عشرة سنة ، وكان حسن الصوت في القراءة ، وأخرج ابن عدى من طريق أـحمد بن صالح قال : كان الشافعى إذا تكلـم كـان صوـته صـنج أو جـرس من حـسن صـوـته . وأخرج الحـاكم من طـريق بـحر بن نـصر قال : كـنا إـذا أـردـنا أـن نـبـكـى قـلـنا : اذـهـبـوا فـوـمـوا إـلـى هـذـا الفـقـيـ المـطـلـى الذـى يـقـرـأـ القرآن ، فـإـذـا أـتـيـناه اـسـفـتـجـ القرآن حتى يتـسـاقـطـ النـاسـ بين يـديـهـ ويـكـثـرـ عـجـيجـهـمـ بالـبـكـاءـ من حـسن صـوـتهـ ، فـإـذـا رـأـى ذـلـكـ أـمـسـكـ .

وكان واسع العلم بالتفـسـير حتى قال يـونـسـ بن عـبدـ الأـعـلـىـ : كان الشافـعـىـ إـذـا أـخـذـ في التـفـسـيرـ كـانـ شـاهـدـ التـنـزـيلـ ، وـكـانـ الشـافـعـىـ يـقـولـ : نـظـرـتـ بـينـ دـفـقـيـ المـصـحـفـ فـعـرـفـتـ مـرـادـ اللهـ تـعـالـىـ مـنـ جـمـيعـ مـاـ فـيـهـ إـلاـ حـرـفـيـنـ أـشـكـلـاـ عـلـىـ ، قـالـ الـراـوىـ : الـأـوـلـ نـسـيـتـهـ ، وـالـثـانـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : « وـقـدـ خـابـ مـنـ دـسـاـهـاـ » قـالـ : فـإـنـيـ لـمـ أـجـدـهـ فـلـغـةـ الـعـربـ ، ثـمـ قـرـأـتـ لـقـاتـلـ بـنـ سـلـيـمانـ قـالـ : إـنـهـ لـغـةـ السـوـدـانـ فـإـنـ (دـسـاـهـاـ) أـغـواـهـاـ . الـراـزـىـ صـ ١٢٤ ، ١٢٥ـ وـابـنـ حـسـنـ صـ ٦٠ـ

ويروى عنه أيضاً : أنه قال : كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي : « أخاف أن يصيبك السرطان كثرة وقوفك في الحر ». تاريخ

بغداد ج ٦ ص ٥٩

ويظهر أن حب الرماية لم ينزعه من بين جواب الشافعى جلال السن وجلال الإمامة .

« عن المزني قال : كنت عند الشافعى فربه دف ، فإذا رجل يرمى بقوس عريمة ، فوقف عليه الشافعى وكان حسن الرمى فأصاب سهاماً ، فقال له الشافعى : أحسنت . وبرأك عليه . قال لي : ما معك ؟ فقلت : ثلاثة دنانير ، فقال : « أعطه إياها واعذرني إذ لم يحضرني غيرها ». توالى

التأسيس — ص ٦٧ ^(١)

(١) ويظهر أن الشافعى كان يعرف جياد الخيل ، ولعله كان من فرسانها . وفي كتاب « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٣ :

« روى عن الشافعى أنه قال : رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنـه ! فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله . قلت : دع لنفسك منها دابة تركبها . فقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأْ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابـة ، ولم ير مالك راكباً بالمديـنة فقط . ج ٢ ص ٨٧ .

وكان الشافعى متأنراً في خلقه وفي خلقه بالرياضة البدنية التي شغف بها منذ

قال الشافعى : « لما ختمت القرآن دخات المسجد أجالس العلماء وأحفظ

الصغر ، فكان جسمه جسم الرياضيين ، وكان خلقه خلق الرياضيين . ذكر زين الدين عمر بن الوردى أن ابن صلاح ، نعمت الشافعى لبعض ملوك الشام فقال : كان ، رضى الله عنه وجزاه الخير ، طويلاً سائل الحدين قليل لحم الوجه طويلاً عنق ، طويلاً القصب ، أسمراً خفيف العارضين ، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية ، حسن الصوت حسن السمت ، عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق ، مهيباً فصيحًا من أذرب الناس لساناً ، إذا أخرج لسانه بلغ أنفه . ج ١ ص ٢١٥ .
ويظهر أن الشافعى كان لا يحب السمن ولا يحسن ظنه في أهله . ويروى : أنه كان يقول : ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن . وتلك مقالة رجل رياضي .
ومن أخلاق الرياضيين العزة والاحترام والقصد والبر والصيانة .
وقد كان الشافعى عزيراً صبوراً مقتضاها خيراً .

وروى عن الربيع أنه قال : قال عبد الله بن الحكم لشافعى : إذا أردت أن تسكن البلد ، يعني مصر ، فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به .
فقال له الشافعى : يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له ، وقد ولدت بغزة
ورببت بالمحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعاً فقط .

ومما يتصل بذلك ما روى أن الربيع سئل : كيف كان لباس الشافعى ؟ قال :
كان مقتضاها فيه : يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادى ،
وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جداً ، ويلبس كثيراً العمامه والخف ،
وكان لا يأتى عليه يوم لا يتصدق ، ويتصدق بالليل ولا سيا في رمضان ، ويتصدق
الفقراء والضعفاء . ابن حجر ص ٦٧ ، ٦٨ .

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعى من أول صغره بالذكاء والعقل والصيانة ،
ويقولون : لم نعرف له صغيرة . كتاب مرآة الجنان ج ٢ ص ٢ .

الحديث والمسألة ، وكان منزلنا مكة في شعب الخيف ، وكنت فقيراً بحيث
ما أملك ما أشتري به القراطيس ، فكنت آخذ العظم أكتب فيه ، وأستوّه
الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها » الرازى — ص ١٦

وكان الشافعى في أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب . قال
الشافعى : « وخرجت من مكة — يعني بعد أن بلغ — قال : فلزمت هذيلاء
بالبادية أتعلم كلامها وأأخذ اللغة . وكانت أفعى العرب ^(١) ». ابن حجر

ص ٥٠

(١) ويقول الرازى : اعلم أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتاخرين منهم ،
اعترفوا للشافعى بالتقدم في علم اللغة وأقرروا له بكل الفصاحة . نقل عن
الأصمى أنه قال : قرأت ديوان المذليين على شاب من شباب قريش يقال له
« محمد بن إدريس الشافعى »

وحكى ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمى أنه قال : قرأت
شعر الشنفرى على محمد بن إدريس . ثم نقل الرازى شهادة المازنى والجاحظ وشلب
وأبي منصور الأزهري وأبى سليمان الخطابي ونقطويه والزمخشرى للشافعى ،
وقال بعد أن نقل كلام الزمخشرى في الكشاف ، الذى يرجح به رأى الشافعى
في تفسير بعض الآيات : مانصه :

هذا كلام صاحب الكشاف ، نقلته بلفظه . وهو صريح بأن نظر الشافعى
(رض) في هذه الآية أتم ، ووقفه على العربية أكمل . مع أن صاحب

ثم توجه الشافعى إلى الفقه يدرسه . وقد اختلفت الروايات في سبب

الكشاف كان على مذهب أبي حنيفة ، فكانت شهادته لشافعى بالتقدم في هذا
العلم دليلاً على أن الأمر كذلك . الرازى ، ص ١٥٣ إلى ١٥٦

وفي معجم الأدباء لياقوت نقلًا عن الآبرى ، قال : وسمعت ابن هشام يقول :
الشافعى كلامه لغة يحتاج به . وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفرانى قال : كان
قوم من أهل العربية مختلفون إلى مجلس الشافعى معنا ، ويجلسون ناحية ،
قال : فقلت لرجل من رؤسائهم : إنكم لا تعاطون العلم فلم مختلفون معنا ؟ قالوا :
نسمع لغة الشافعى

وحدث ابن خزيمة قال : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : كان الشافعى
إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإن شاده قلت :
هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه قلت : هو بهذا أعلم . ج ٦ ص ٢٧٩ و ٣٨٠
وذكر البغدادى في تاريخ بغداد عن أبي الوليد بن أبي الجارود أنه كان
يقول : ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعى ، فإن إنسانه
كان أكثر من كتابه . ج ٢ ص ٦٧

وقد رروا للشافعى أشعاراً يكفي في الحكم عليها أن نذكر ما ذكره الرازى
من أن الشافعى كان يقول :

لا يكاد يوجد شعر القرشين ؟ لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم
﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ولا يكاد يوجد خط القرشى ؟ لأن النبي صلى الله
عليه وسلم ما كان يكتب بدليل قوله تعالى ﴿ ولا تخطه يمينك ﴾ . ص ١٩٥
على أنه يقع للشافعى فيما يروى له من الشعر ما يكون جيداً كقوله :

توجهه إلى الفقه ، وتكلاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له : أن يصرف جهده وذكاءه في علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه . ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلاً إلى ذلك .

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي يوسف قال : قال أبو حنيفة : لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسائل عن عواقبها ، فقيل لي : تعلم القرآن . فقلت : إذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره ؟ قالوا : تجلس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ، ثم لا تثبت أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك في الحفظ ، فتذهب رياستك . قلت : فإنْ سمعت الحديث وكتبه

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظمها
وقوله :

ما طار طير وارتفع إلا كا طار وقع

وقوله :

لا تأس في الدنيا على فائت وعندك الإسلام والعافية

وقوله :

وأحق خلق الله بالهم أمرؤ ذو همة يبني بعيش ضيق

وقوله :

أكل العقاب بقوه جيف الفلا وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني ؟ قالوا : إذا كبرت وضفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان ، ثم لم تأمن أن تغاط فيرموك بالكذب ، فيصير عاراً عليك في عقلك . فقلت : لاحاجة لي في هذا . ثم قلت : أتعلم النحو . فقلت : إذا تعلم النحو والعربي ما يكون آخر أمري ؟ قالوا : تقدر معلماً وأكثر رزقك ديناراً إلى ثلاثة . قلت وهذا لاعتباه له . قلت : فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني ، ما يكون من أمري ؟ قالوا : تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة ، وإن حرمك هجوته فصرت تقذف المصنفات . فقلت : لاحاجة لي في هذا . قلت : فإن نظرت في الكلام فما يكون آخره ؟ قالوا : لا يسلم من نظر في الكلام من شنوات الكلام فيرمى بالزنقة ، فإما أن يؤخذ فيقتل ، وإما أن يسلم فيكون مذموماً . قلت : فإن تعلمت الفقه ؟ قالوا : تسأل وتفتي الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شاباً . قلت : ليس في العلوم شيء أفع من هذا ، فلزمت الفقه وتعلمه .

تبسيط الصحيفة ص ١٢ و ١١ .

وتفقه الشافعى أول أمره على « مسلم بن خالد الزنجى » مفتى مكة سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م مولى بنى مخزوم . وقد اختلف النقاد في أمر مسلم فقيل : ثقة ، وقيل : ضعيف ، وقيل : ليس بشيء ، وقال البخارى : منكر الحديث . ونقل أنه كان يرى القدر . ولعل هذا هو سر تضعيفه .

ويقولون : إن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعى : أفت يا أبا عبد الله
فقد آن لك أن تفتقى ! وكان الشافعى حينئذ دون عشرين سنة .
وأخذ الشافعى في مكة عن : « سفيان بن عيينة الهمالى » المتوفى سنة
١٩٨ هـ ٨١٣ م أحد الثقات الأعلام ، وروى عن بعضهم : أنه اختلط سنة
١٩٧ هـ ٨١٢ م .

ثم رحل الشافعى إلى المدينة ليطلب العلم على « مالك بن أنس » فقرأ
الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة ، وأقام بالمدينة إلى
أن توفي « مالك » سنة ١٧٩ هـ ٧٩٥ م .

وخبر رحلته إلى مالك مروي على وجوه مختلفة ، تتفق كلها في أن
الشافعى كان فقيرا لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام
دار الهجرة .

ثم يسر الله له أسباب الرحلة ، وأحسن مالك لقاءه لما تفرّس من
نجابته وفضله .

وتلقى الشافعى في المدينة عن غير مالك كابر ابراهيم بن أبي يحيى الذى
يقول الرازي : اتفقوا على أنه كان معتزليا .

وخرج الشافعى إلى اليمن بعد موت مالك .

« قال الشافعى : لما مات مالك كنت فقيرا ، فاتفق أنَّ والي اليمن قدم

المدينة فـكـلـمـه بـعـضـ الفـرـشـيـنـ فـأـنـ أـصـحـبـهـ ،ـ فـذـهـبـتـ مـعـهـ وـاسـتـعـمـلـنـىـ فـ

أـعـمـالـ كـثـيـرـةـ ،ـ وـحـمـدـتـ فـيـهـ ،ـ وـالـنـاسـ أـشـنـوـاـ عـلـىـ »ـ .ـ الرـازـىـ صـ ١٨ـ

وـكـادـتـ الـوـلـاـيـةـ تـشـغـلـ الشـافـعـىـ عـنـ الـعـلـمـ حـتـىـ نـبـهـ بـعـضـ شـيـوخـهـ فـأـنـتـبـهـ .ـ

قـالـ الشـافـعـىـ :ـ كـنـتـ عـلـىـ عـمـلـ بـالـيـنـ ،ـ وـاجـهـتـ فـيـ الـخـيـرـ وـالـبـعـدـ عـنـ
الـشـرـ ،ـ ثـمـ قـدـمـتـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ فـلـقـيـتـ اـبـنـ أـبـيـ يـحـيـىـ وـكـنـتـ أـجـالـسـهـ ،ـ فـقـالـ لـىـ :ـ
تـجـالـسـوـنـاـ وـتـسـمـعـونـ مـنـاـ ،ـ فـإـذـاـ ظـهـرـ لـأـحـدـكـمـ شـىـءـ دـخـلـ فـيـهـ .ـ

ثـمـ لـقـيـتـ اـبـنـ عـيـنـةـ فـقـالـ :ـ قـدـ بـلـغـنـاـ وـلـايـتـكـ فـاـ أـحـسـنـ مـاـ اـنـتـشـرـ عـنـكـ ،ـ
وـأـدـيـتـ كـلـ الـذـيـ لـلـهـ عـلـيـكـ ،ـ وـلـاـ تـعـدـ .ـ

قـالـ الشـافـعـىـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ :ـ مـوـعـظـةـ اـبـنـ عـيـنـةـ أـبـلـغـ مـاـ صـنـعـ اـبـنـ أـبـيـ
يـحـيـىـ .ـ الرـازـىـ صـ ٢٠ـ

وـقـدـ أـخـذـ الشـافـعـىـ عـنـ جـمـاعـةـ مـنـ أـهـلـ الـيـنـ مـنـهـمـ مـطـرـفـ بـنـ مـازـنـ
الـصـنـعـانـىـ الـمـتـوـفـ سـنـةـ ١٩١ـ هـ ٨٠٦ـ مـ .ـ وـقـدـ كـذـبـهـ يـحـيـىـ بـنـ مـعـينـ ،ـ وـقـالـ
الـنـسـائـىـ :ـ لـيـسـ بـشـفـةـ .ـ وـقـالـ غـيـرـهـ كـانـ قـاضـىـ صـنـعـاءـ وـكـانـ رـجـلـ صـالـحـاـ
وـعـمـرـوـ بـنـ أـبـىـ سـلـمـةـ الـمـتـوـفـ سـنـةـ ٢١٤ـ هـ ٨٢٩ـ مـ وـهـوـ صـاحـبـ الـأـوـزـاعـىـ .ـ
وـيـقـولـونـ :ـ إـنـ الشـافـعـىـ جـمـعـ كـتـبـ الـفـرـاسـةـ مـنـ الـيـنـ وـاشـتـغـلـ بـهـ حـتـىـ
مـهـرـ فـيـهـ .ـ

ارتفع شأن الشافعى في اليمن، « ثم إن الحсад سعوا به إلى هارون الرشيد ، وكان باليمين واحدٌ من قواه فكتب إليه يخوّفه من العلوين ، وذكر في كتابه : أن معهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيفه ، فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك .

فبعث الرشيد إلى اليمن ، وحملوا الشافعى مع العلوية إلى العراق » .

الرازى ص ١٨

وتلك هي الحنة التي اقتضت دخول الشافعى العراق . وفي حديث هذه الحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدنها إلى الاعتدال والقصد ، ما رواه ابن عبد البر في كتاب « الانتقاء » قال :

« حل الشافعى من الحجاز ، مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر ، إلى بغداد ، وكان الرشيد بالرقة ، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه : « محمد بن الحسن الشيبانى » وكان صديقاً الشافعى ، وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه ^(١) ، فلما بلغه أنَّ الشافعى في القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعى عليه ، اغتم لذلك غمَّا شديداً؛ وراعى وقتَ دخولهم على الرشيد . قال : فلما أدخلوا على الرشيد

(١) لعل في العبارة تحريراً فإن المعروف أنَّ الشافعى هو الذي أخذ عن محمد.

سأله وأمر بضرب أعناقهم . فضررت أعناقهم إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة ، وأنا ، فقال للعلوى : أأنت إخارج علينا والزاعم أنى لا أصلاح لخلافة ؟ فقال العلوى : لن أدعى ذلك أو أقوله . قال : فأمر بضرب عنقه ، فقال العلوى : إن كان لابد من قتلي فانظرني أكتب إلى أمي بالمدينة ، فهى عجوز لم تعلم بخبرى . فأمر بقتله فقتل .

ثم قدمتُ و محمد بن الحسنجالس معه ، فقال لي مثل ماقال للفتى ، فقلت : يا أمير المؤمنين است بطابى ولا علوى ، وإنما دخلت في القوم بغياً على ، وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصى ، ولی مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ، وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . فقال لي : أنت محمد بن إدريس ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ما ذكرك لي محمد بن الحسن ؟ ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ، ما يقول هذا هو كما يقوله ؟ قال : بلى ، وله من العلم محل كبير ، ووليس الذى رفع عليه من شأنه . قال : فخذه إليك حتى انظر في أمره . فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل منه . ص - ٩٧ ، ٩٨

ويقول ابن حجر في كتاب «توالى التأسيس» ص - ٧١ : «وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعى ، المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوى فقد أخرجها

الآبرى ، والبيهقي ، وغيرهما مطولة ومحقضة ، وساقها الفخر الرازى في مناقب الشافعى بغير إسناد معتمداً عليها ، وهى مكذوبة ، وغالب ما فيها موضوع ، وبعضها ملتفق من روایات ملقة ، وأوضح ما فيها من الكذب ، قوله فيها : إن أبو يوسف محمد بن الحسن حرضاً الرشيد على قتل الشافعى ، وهذا باطل من وجهين : أحدهما — أن أبو يوسف لما دخل الشافعى بغداد وكان مات لم يجتمع به الشافعى .

والثانى — أنهما كانا أتقى الله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم ؛ وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم . هذا ما لا يُظن بهما ، وإن متصلهما وجلاهما ، وما اشتهر من دينهما ليصدّ عن ذلك .

والذى تحرر لنا بالطرق الصحيحة : أن قدوم الشافعى بغداد أول ما قدم كان سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بستين ، وأنه لقى محمد بن الحسن في تلك القدمة ، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه .

ومن أخذ عنهم الشافعى في العراق « وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى أبو سفيان الكوفى الحافظ » المتوفى سنة ١٩٠ هـ — ٨٠٦ م ، و« حادىن أسامى الهاشمى الكوفى » المتوفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٥ م ، و« عبد الوهاب بن عبد الجيد البصري » المتوفى سنة ١٩٤ هـ — ٨١٠ م . وقد قرأ

الشافعى كتب «محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤ - ٨٠٥ م ولازمه وأخذ عنه .

ولم نر فيها بين أيدينا من تراجم الشافعى ذكر مدة مقامه في بغداد في هذه القدمة .

وقدم الشافعى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ ٨١٠ - ٨١١ م فأقام سنتين واشتهرت جلاله الشافعى رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون ... وعكف عليه الاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأحباب من أهل الحديث والفقه وغيرها ، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه ، وتمسكون بطريقته ، كأبي ثور وخالائق لا يحصون ... وصنف في العراق كتابه القديم ، ويسمى «كتاب الحجة» ويرويه عنه أربعة من جلة أصحابه وهم : أحمد بن حنبل ، وأبو ثور ، والزغفرانى ، والكرابيسى » . شرح المذهب للنحوى ج ١ ص ٩ .

ثم خرج الشافعى إلى مكة وعاد إلى بغداد في سنة ١٩٨ هـ ٨١٣ - ٨١٤ م وأقام بها أشهرا ، ثم إنه خرج إلى مصر في هذه السنة كما في معجم الأدباء . ويقول ياقوت في موضع آخر : « ويقال إن الشافعى رضى الله عنه قدم إلى مصر سنة ١٩٩ هـ ٨١٤ - ٨١٥ م في أول خلافة المأمون ، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس

استصحبه فصحبه ، وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر» . ج ٦ ص

(٣٩٤)

(١) وليس معنى ذلك أن الشافعى إنما خرج إلى مصر لمجرد الرغبة في مصاحبة الوالى ، فقد كان يتшوق إلى مصر من قبل ، ورووا له في ذلك شعراً :
أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونه والوعر
ووالله ما أدرى الملاخفض والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى ؟
وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهمданى المعروف بابن الفقيه فى
كتاب البلدان المؤلف نحو سنة ٢٩٠ هـ منسوباً إلى أبي نواس ، فيكون الشافعى
قد تمثل بها .

وقد يفهم سبب خروج الشافعى إلى مصر مما ذكره ابن البراز الكردى فى
مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة على ما فيه من التحامل بين : عن الجارود
ابن معاوية قال : كان الشافعى رضى الله عنه بالعراق يصنف الكتب وأصحاب
محمد يكسرون عليه أقوايله بالحجج ، ويضعفون أقواله ، وضيقوا عليه . وأصحاب
ال الحديث أيضا لا يلتفتون إلى قوله ، ويرمونه بالاعتزال ، فلما لم يقم له بالعراق
سوق خرج إلى مصر ولم يكن بها فقيه معلوم فقام بها سوقه . ج ٢ ص ١٥٣
وإذا كان الشافعى قد خرج إلى مصر يلتمس نشر مذهبة فهو إنما أراد
أن يلتمس لرأيه ميداناً جديداً بعد أن أدرك النصر في الحجاز والعراق .
وقال الربعى : سألنى الشافعى عن أهل مصر فقلت : هم فرفقان ، فرقه مالت
إلى قول مالك وناضلت عليه ، وفرقه مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه ،
فقال : أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتهم بشيء أشغلهم عن القولين جميعاً .
قال الربعى : فعل ذلك والله حين دخل مصر . ابن حجر ص ٧٧ .

وفي شرح المذهب : «وقال الربيع : قدم الشافعى (مصر) سنة مائتين . ولعله قدم في آخر سنة تسع ، جمعاً بين الروايتين . وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر ، وسار ذكره في البلدان ، وقصده الناس من الشام وال العراق واليمن وسائر النواحي ، للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة » . ص ٩

وفي ابن خلkan : « ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين » .

(١) وأقام الشافعى بمصر إلى أن مات سنة ٤٢٠٤ هـ و ٨٢٠ م وكان في آخر عمره علیلاً شديداً شديدة العلة من البواسير ، حتى قالوا : إن صدره أصبح ضيقاً ، وإنه كان يقول : إني لآتى انقطأ وأنا أعرفه . يعني ترك الحمية . وفي كتاب « توالى التأسيس » لابن حجر : « قلت : قد اشتهر أن سبب موت الشافعى : أن فتيان بن أبي السمح المالكى المصرى وقعت بيته وبين الشافعى مناظرة ، فبدرت من فتيان بادرة فرفعت إلى أمير مصر ،

(١) في كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا :

في ٤ من يناير سنة ٨٢٠ كانت وفاة الإمام محمد بن إدريس اللقب بالشافعى رضى الله عنه ، وهو صاحب المذهب الشافعى ، ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى . ص ١٠٢ .

فطلبـه وعـزـرـه ، فـحـقـدـ ذـلـكـ ، فـاقـيـ الشـافـعـيـ لـيـلـاـ فـضـرـ بـهـ بـعـتـاحـ حـدـيدـ فـشـجـهـ
فـتـمـرـضـ الشـافـعـيـ مـنـهـ إـلـىـ أـنـ مـاتـ . وـلـمـ أـرـ ذـلـكـ مـنـ وـجـهـ يـعـتـمـدـ » . صـ ٨٦ـ .
لـمـ تـقـتـلـ الشـافـعـيـ شـجـهـ «ـ فـتـيـانـ »ـ المـزـعـومـةـ . إـنـماـ قـتـلـ الشـافـعـيـ مـاـ بـذـلـهـ
مـنـ جـهـدـ عـنـيفـ فـيـ السـنـينـ الـأـرـبـعـ الـتـيـ أـقـامـهـ بـمـصـرـ ، مـاـ بـيـنـ تـالـيـفـ وـتـدـرـيـسـ
وـمـنـاظـرـةـ ، وـسـعـيـ فـيـ بـثـ مـذـهـبـهـ ، وـمـدـافـعـةـ كـيـدـ خـصـوـمـهـ ، هـذـاـ إـلـىـ مـرـضـهـ
الـنـهـاـيـهـ ، وـقـدـ كـانـ فـيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ مـصـابـاـ بـنـزـيفـ مـنـ الـبـاسـورـ .

قـالـ الرـبـيعـ تـلـيمـيـهـ : أـقـامـ الشـافـعـيـ هـنـاـ أـرـبـعـ سـنـينـ ، فـأـمـلـىـ أـلـفـاـ وـخـمـسـائـةـ
وـرـقـةـ ، وـخـرـجـ كـتـابـ «ـ الـأـمـ »ـ أـلـفـ وـرـقـةـ ، وـكـتـابـ «ـ السـنـ »ـ ، وـأـشـيـاءـ كـثـيرـةـ ،
كـلـهـاـ فـيـ مـدـدـ أـرـبـعـ سـنـينـ ، وـكـانـ عـلـيـلـاـ شـدـيدـ الـعـلـةـ ... ». اـبـنـ حـجـرـ صـ ٨٣ـ .
وـكـانـ يـلـازـمـ الـاشـتـغالـ بـالـتـدـرـيـسـ وـالـإـفـادـةـ فـيـ جـامـعـ عـمـرـوـ .

وـكـانـ يـجـلسـ فـيـ حـلـقـتـهـ إـذـاـ صـلـىـ الصـبـحـ ، فـيـجـيـئـهـ أـهـلـ الـقـرـآنـ فـيـسـأـلـونـهـ ،
فـإـذـاـ طـلـعـتـ الشـمـسـ قـامـواـ وـجـاءـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ فـيـسـأـلـونـهـ عـنـ مـعـانـيـهـ وـتـفـسـيـرـهـ ،
فـإـذـاـ اـرـتـفـعـتـ الشـمـسـ قـامـواـ وـاسـتـوـتـ الـحـلـقـةـ لـمـنـاظـرـةـ وـالـذـاكـرـةـ ، فـإـذـاـ اـرـتـفـعـ
الـنـهـارـ تـفـرـقـواـ وـجـاءـ أـهـلـ الـعـرـبـيـةـ وـالـعـروـضـ وـالـشـعـرـ وـالـنـحـوـ ، حـتـىـ يـقـرـبـ
اـنـتـصـافـ الـنـهـارـ ، ثـمـ يـنـصـرـفـ إـلـىـ مـنـزـلـهـ . اـبـنـ حـجـرـ صـ ٦٢ـ .

وـأـخـرـجـ أـبـوـ نـعـيمـ مـنـ طـرـيقـ اـبـنـ حـسـيـنـ الـبـصـرـيـ : سـمـعـ طـبـيـباـ مـصـرـيـاـ

يقول : ورد الشافعى مصر فذا كرني بالطلب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره ،
فقلت له : أقرأ عليك شيئاً من كتاب أبقراط ، فأشار إلى الجامع فقال :
إن هؤلاء لا يتركوننى . ابن حجر ص ٦٦

وقد يكون الشافعى درس الطب فيما درسه من العلوم في العراق حينما
جاءها أول مرة .

وقد يكون درس علوم التنجيم أيضاً هناك ، وإنهم ذكروا أن الشافعى
اشتغل بعلوم التنجيم ؛ وكل ذلك يدل على ما كان من شغف الإمام
بالعلم كله .

وقد يكون هذا الجلوس المتواتى في الجامع من أسباب ما أصيب به
الإمام من المرض .

وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم في رسالته « رحلة الإمام الشافعى إلى
مصر » أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالى في صباح الليلة التي توفى فيها ، وكان
الوالى هو محمد بن السرى بن الحكم ، وطلبو إيميه الحضور لتفسييل الإمام
كما أوصى ، فقال لهم الوالى : هل ترك الإمام ديننا ؟ قالوا : نعم . فأمر الوالى
بسداد ذلك الدين كله ، ثم نظر إليهم وقال لهم : هذا معنى تفسيلي له .

وإن صحت هذه القصة التي لم يذكر راوياها^(١) لها إسناداً فهى تدل على أن الشافعى خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً.

ولسنا نشك في أن الشافعى مات فقيراً ، لكننا نشك في أمر استدانته ، فقد روى ابن حجر في «تواتي التأسيس» عن ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد السرجى قال : قال لى الشافعى : أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلي وكثيرى حتى حللى ابنتى وزوجتى ، ولم أستدن قط . ص ٦٧

وتزوج الشافعى (حديدة) بنت نافع بن عبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فولدت له (أبا عثمان ممدا) وكان قاضياً لمدينة حلب ، (وفاطمة) ، (وزينب).

(١) وقد عثرت على هذه الرواية في كتاب (نارىخ مصر) المشهور (ببدائع الزهور في وقائع الدهور) ولفظه . قيل : لما مرض الإمام الشافعى أوصى بأن لا يغسله إلا أمير البلد ، فاما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد ، فقيل له : إن الإمام أوصى بأن لا يغسله إلا أنت ، فقال : هل توفى الإمام وعليه دين ؟ فقيل : نعم . فحسبوا ما عليه من الدين فإذا هو سبعون ألف درهم ، فقضاهما عنه محمد بن السرى أو قال : هذا غسلى وإيه ، وإنما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه . ج ٣ - ص ٣٣

الدراسات الفقهية في عهد الشافعى

كان التشريع في عهد النبي عليه السلام يقوم على الوحي : من الكتاب والسنة ، وعلى الرأي من النبي ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه ، بدون تدقيق في تحديد معنى الرأي وتفصيل وجوبه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم ومضي عهد النبي عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١ هـ - ٦٣٢ إلى سنة ٤٠ هـ - ٦٦٠ وقد اتفق الصحابة في هذا العهد على استعمال القياس في الواقع التي لا نص فيها من غيره نكير من أحد منهم ، وفي هذا العهدأخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يرکن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة ، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ ، وهم المعتبرون في الإجماع ، قلة لا يتعدى تعرف الاتفاق بينهم في حكم من الأحكام .

ولم يكن يفتى من الصحابة إلا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلائله وناسخه ومسنونه ، وكانوا يسمون « القراء » لذلك ، وتميزوا

هم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب في أمية أمية - لا تقرأ ولا تكتب .

ثم كان عصر بنى أمية من سنة ٤٠ هـ - ٦٦٠ م إلى سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م وتكاثر المارسون لقراءة والكتابة من العرب ، ودخلت في دين الله أمم ليست أمية ، فلم يعد لفظ القراء نعتاً غريباً يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين ، هنا لا يكفي استعمال لفظ « العلم » للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والأثار وسمى أهل هذا الشأن « العلامة » واستعمل لفظ « الفقه » للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلي فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة .

وسمى أهل هذا الشأن « الفقهاء » ، فإذا جمع أمرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يراد بهما .

وفي طبقات ابن سعد : « كان ابن عمرو جيد الحديث غير جيد الفقه ، وكان زيد بن ثابت فقيهاً في الدين عالماً بالسنن ». .

وقد كان كثيراً من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليله في الصحف ، كابن عباس ، والشعبي ، والنخعسي ، وفتادة ، ومن ذهب مذهبهم وهو لا يأبه لهم عرب طبعوا على الحفظ جبلاً العرب

قال ابن عبد البر : من كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين : أحدهما - ألا يتبع مع القرآن كتاب يضاهي به ، ولثلا يتكل

الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ . (مختصر جامع بيان العلم ص ٣٤) .

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين ، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى المولى إلا قليلا . « عن عطاء قال : دخلت على هشام بن عبد الملك فقال : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى . قال : فمن فقيه المدينة ؟ قلت : « نافع » مولى ابن عمر ، وفقيه مكة « عطاء بن رباح » المولى ، وفقيه اليمن « طاوس » بن كيسان المولى ، وفقيه الشام « مكحول » المولى ، وفقيه الجزيرة « ميمون » بن مهران المولى ، وفقيها البصرة « الحسن وابن سيرين » الموليان ، وفقيها الكوفة « إبراهيم » النخعي العربي . قال هشام : لو لا قولك عربي لكادت نفسي تخرج » .

مناقب الإمام الأعظم للبزار ج ١ — ص ٥٧

عندئذ تصاعدت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازماً . « عن سعد بن إبراهيم قال : أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ ٧٢٠ م بجمع السنن فكتبتها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفتراً ». مختصر جامع بيان العلم ص ٣٣ .

وقد بدت مخايل نهضة في التشريع الإسلامي منذ ذلك العهد فحصل

تدوين بعض السنن وبعض المسائل ، ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلا
صدى^(١) .

ويقول « جولد زيهير » في مقاله عن كتبة (فقهه) في دائرة المعارف
الإسلامية : « وينبغى إلا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه في
يوم الحرة حرقت لأبيه كتب فقهه ، ولا يمكن أن يتصور بحال أنه في ذلك
العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هي صحائف متفرقة .
وتوفي عروة سنة ٩٤ هـ - ٧١٢ م التي كانت تسمى « سنة الفقهاء » لكثرتها
من مات فيها من الفقهاء » .

(١) على أن تلك المدونات لم تكن إلا صحائف أو مذكرات . أما أول تدوين
للسنن بالمعنى الحقيقي فيقع نحو ما بين سنتي ١٢٠ و ١٥٠ هـ .
ويقول ابن قتيبة : إن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ هو أول من
كتب الحديث .

وفي كتاب « كشف الظنون » : « واعلم أنه اختلف في أول من صنف
فقيل : الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح البصري المتوفى سنة ١٥٥ هـ
— ٧٧٢ م وقيل أبو النصر سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ —
— ٧٧٣ م ذكرهما الخطيب البغدادى . وقيل ربيع بن صبيح المتوفى
سنة ١٦٦ هـ — ٧٨٣ م « قاله الرامهرمزى » .

وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معائد القرآن والحديث ومعانיהם » .

وبالجملة : فإنه إذا كان دون شيء لضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما في عهد بنى أمية ، فإن التدوين في الفقه بالمعنى الحديث لم يكن إلا في عهد العباسيين .

هذا هو الرأى الذى كان مقرراً بين الباحثين ، لكن « جولد زيرر » يذكر في المقال الذي أشرنا إليه آفما يأتي : « وقد اكتشف « جرفيني » بين الخطوطات القيمة في المكتبة « الأمبروزية » بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوية ، مختصراً في (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن علي) المتوفى سنة ١٢٢٥ - ٧٤٠ م وهو منسوب إلى مؤسس فرقـة (الزيدية) من الشيعة ، وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي . وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي . وإذا صـح أنه وصل إلينا من بطانة « زيد بن علي » وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية » .

على أن البحث الذي أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل .

ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون ، ولا أثير في بلاد إسلامية . وقد ذكر صاحب « الفهرست » عند الكلام على الزيدية ما نصـه :

الزيدية الذين قالوا بامامة زيد بن علي عليه السلام ، ثم قالوا بعده بالأمامية في ولد « فاطمة » كائناً من كان ، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة . وأكثر المحدثين على هذا المذهب مثل « سفيان بن عيينة » « وسفيان الثوري » ... ص ١٨٧ .

وعلاقة هذين الإمامين بهذه الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذي يشير إليه « جولد زيهير » شأنًا خطيراً .

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢ هـ و ٧٥٠ م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم ، فكان طبيعياً أن تنتعش العلوم الدينية في ظلهم ، بل كانت حركة التهوض أسرع إلى العلوم الشرعية؛ لأنها كانت في دور نمو طبيعي وتكامل .

وهناك سبب آخر يذكره « جولد زيهير » في كتابه « عقيدة الإسلام وشرعه » هو : « أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية ، فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية » .

كان العباسيون يجعلون حقهم في الإمامة قائماً على : أنهم سلاطنة البيت النبوى ، وكانوا يقولون : إنهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالرذدة نظاماً منطبقاً على سنة النبي وأحكام الدين الالهى .

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية ، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة ، كان برنامج الحكم العباسي .

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعى ، جمع الأحكام الشرعية ،
وتدوينها .

وفي صدر العهد العباسى تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ
« الفقه » ينتهي بالتدريج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلى ، أى
الاستنباط من الأدلة التى ليست نصوصاً ، وأصبح المعنى الأول للفقه هو :
« الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أداتها التفصيمية » نصوصاً كانت
أو رأياً ، وسمى أهل هذا الشأن بالفقهاء ، ونشأ التأليف في الفقه بهذا المعنى ،
وانقسم الفقه إلى طریقتین : طریقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ،
وطریقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز .

أَهْلُ الرَّأْيِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ

ومقدم جماعة أهل الرأى الذى استقر المذهب فيه وفي أصحابه هو :
« أبو حنيفة » المعتبر أباً لمذهب أهل العراق ، أنسه وأعاته على تأسيسه
تلميذاه الجليلان : « أبو يوسف » القاضى المتوفى سنة ١٨٢ هـ ٧٩٧ م
و « محمد بن الحسن » الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤ م
ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ ٧٣٧ و ٧٣٨ م
هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه ، مع ميل غالب
للرأى ، وكان « أبو حنيفة » من هؤلاء التلاميذ ، فإن حماداً لم يترك أثراً
علمياً مكتوباً . أما أبو حنيفة فيقول صاحب « الفهرست » : « وله من الكتب
كتاب الفقه الأكبير — كتاب رسالته إلى اليسقى — كتاب العالم
والتعلم رواه عنه مقاتل — كتاب الرد على القدرية — والعالم برأ وبحراً ،
شرقاً وغرباً ، بعدها وفرياً ، تدوينه رضى الله عنه ». ص ٢٠٢
ويذكر الموفق بن أحمد المكي الحنفى فى كتابه « مناقب الإمام الأعظم »

أثر أبي حنيفة في الفقه بقوله ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ : « وأبو حنيفة أول من دون علم الشريعة ، لم يسبق أحد من قبله : لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا في علم الشريعة أبواباً مبوبة ولا كتبًا مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوّة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم ، فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرًا فخاف عليه الخلف السوء أن يضيّعوه . ولهذا قال ﷺ : إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، وإنما ينتزعه بموت العلماء ، فيم ينبع رؤساه جهال فيفتون بغير علم ، فيفضلون ويضللون . فلذلك دونه أبو حنيفة فجعله أبواباً مبوبة ، وكتبًا مرتبة ، فبدأ بالطهارة ثم بالصلوة ثم بسائر العبادات على الولاء ، ثم بالمعاملات ، ثم ختم بكتاب المواريث .

وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلوة لأن المكلف بعد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلوات ، لأنها أخص العبادات وأعم وجوداً ، وأخر المعاملات لأن الأصل عدمها وبراءة الذمة منها . وختمه بالوصايا والمواريث لأنها آخر أحوال الإنسان . فما أحسن ما ابتدأ به وختم ، وما أحذقه وأفهّم وأفقه وأمهر وأعلم وأبصر !

ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه ، واقتدوا به ، وفرعوا كتبهم على كتبه . ولهذا روينا بإسناد حسن عن الشافعى - رحمة الله - أنه قال في حديث طويل : « العلماء عيال على أبي حنيفة في الفقه » .

وروى عن ابن سريج - رحمه الله - أنه سمع رجلاً يتكلّم في أبي حنيفة ،
فقال له : يا هذا مهـ ، فـ إـنـ ثـلـاثـةـ أـرـبـاعـ الـعـلـمـ مـسـلـمـةـ لـهـ بـالـإـجـمـاعـ ، وـالـرـابـعـ لـاـيـسـلـمـ .
لهم .

قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب ، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم ، ثم أجاب عنها فقال بعض : أصاب ، وبعض : أخطأ ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثاني ، والرابع الرابع ينماز عليهم فيه ولا يسلم لهم ... ولأنه - رحمه الله - أول من وضع كتاباً في الفرائض ، وأول من وضع كتاباً في الشروط ، والشروط لا يستطيع أن يضعها إلا من تناهى في العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم ؛ لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه ويتحرّر بها من كل المذاهب لثلاً ينقضها حاكم بنقض أو فسخ ... وقد قيل بلغت مسائل أبي حنيفة خمسة وألف مسألة وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك »

وجملة القول : أن صاحب مذهب أهل الرأى هو الذي رتب أبواب الفقه ، وأكثر من جمع مسائله في الأبواب المختلفة ، وكان الحديث قليلاً في العراق فاستكثروا من القياس ومهرروا فيه ، فلذلك قيل : « أهل الرأى » .

- وإنما كان أهل الحجاز أكثر روایة للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ، ومأوى الصحابة . ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شؤون الدولة أكثر .

ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافيًا بحاجة الدولة التشريعية ، فكان همه أن يجعل الفقه فصولاً مرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء ، وكان همه أن يكثر التفارييع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث . لا جرم كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء ، وكان أمته قضاة كأبى يوسف ، ومحمد . وكان أهل الحديث يعيرون أهل الرأى بكثرة مسائلهم وقلة روايهم .

وسائل رقبة بن مصلحة عن أبي حنيفة فقال : « هو أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما قد كان . وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث في أبي حنيفة . يريد أنه لم يكن له علم باثار من مضى » . عن كتاب مختصر جامع بيان العلم .

ويروى ابن عبد البر في كتاب « الانتقاء » ص ١٤٧ « عن الحكم بن واقد قال : رأيت أبا حنيفة يفتى من أول النهار إلى أن يعلو النهار ، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت : يا أبا حنيفة ، لو أن أبا بكر و عمر في مجلسنا هذا ثم ورد عليهما ما ورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكتفأ عن بعض الجواب ووقفا عنه . فنظر إليه وقال : ألمحوم أنت ؟ يعني مبرسما ».

أما أهل الحديث — أهل الحجاز — فهم « مالك بن أنس » وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى من سواهم وأمن في الصحة

لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط ، وتجاهيلهم عن قبول «المجهول الحال» ، في ذلك .

وكتب «مالك» كتاب «الموطأ» وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه .

وفي كتاب (تبسيض الصحيفة) : أن (مالكا) في ترتيبه للموطأ متابع لأبي حنيفة . ومن العسير إثبات ذلك ، فإن أبي حنيفة وما لك كأنما معاصران ، وإن تأخر الأجل بمالك . وأقدم ما حفظ من الجاميع الفقهية المؤلفة في عصور الفقه الأولى بين السنين هو «موطأ مالك» .

ويقول صاحب الفهرست في سرد كتب مالك : «.. وله من الكتب كتاب الموطأ — كتاب رسالته إلى الرشيد» . ص ١٩٩

وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق : تدوين الأحكام الشرعية مبوبة مرتبة ، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأي ، بل هم كانوا يعتبرون الرأي ضرورة لا ياجاؤن إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان .

وقد روى عن مالك : أنه قال في بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه : «إِنَّ نَظَنْنَاهُ إِلَّا ظَنَّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِيقِينَ» . مختصر جامع بيان العلم ص ١٩٢ .

وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكلّم الناس بالمسائل كما يتكلّم أهل الدرهم بالدرهم ، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن ، قالوا : ألا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب في مسائل الأحكام ما لم تنزل ، فكيف بوضع الاستحسان والظن والتكاليف وتسويغ ذلك والتخاذل دينا !

وفي « الانتقاء » : « قال المheim بن جليل : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري ». ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأي ، والقياس على الأصول في النازلة تنزل عند عدم النصوص .

الشافعى بين أهل الرأى وأهل الحديث

ظهر الشافعى والأمر على ما وصفنا ، من نهضة الدراسة الفقهية في بلاد الإسلام نهضة ترمى إلى الوفاء بالحاجة العملية في دولة تريد أن تجعل أحكام «الشرع دستوراً لها» ، ومن اقسام الفقهاء إلى أهل رأى يعتمدون في نهضتهم على سرعة أفهمهم ، ونفاذ عقو لهم ، وقوتهم في الجدل ؛ وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار ، ولا يأخذون من الرأى إلا بما تدعو إليه الضرورة .

كان أهل الرأى يعيرون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات ، الذى هو مظنة لقلة التدبر والتفهم . « حكى عن أبي يوسف قال : سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير ، فأجبته ، فقال لي : من أين قلت هذا يا يعقوب ؟ فقلت : بالحديث الذى حدثتني أنت . فقال : يا يعقوب إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ماعرفت تأويله إلى الآن » . مختصر جامع

بيان العلم ص ١٨٢ .

فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله ، إلا أنهم كانوا
عجزين عن النظر والجدل ، وكما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالاً
أو إشكالاً سُقط في أيديهم متحيرين . الرازي ص ٣٨ .
هم ضعاف في الاستنباط وفي القدرة على دفع المطاعن والشبهات عن
الحديث .

وكان أهل الحديث يعيرون أهل الرأى بأنهم يأخذون في دينهم بالظن ،
 وأنهم ليسوا للسنة أنصارا ولا هم فيها بثتبتين ؟ فإن أصحاب أبي حنيفة
يقدمون القياس الجلى على خبر الواحد ، وهم يقبلون المراسيل ، والمجاهيل ،
أى الحديث المرسل الذى أسنده التابع أو تابع التابع إلى النبي صلى الله
عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث . أما المجاهيل فهم
مجهولو الحال من الرواة .

ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفًا لقياس ، ولا يقبلونه في
الواقعة التي تعم فيها البلوى . الرازي ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

كانت الحال على ما ذكرنا حين جاء الشافعى ، وقد تفقه الشافعى أول
ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة ، كسلم بن خالد الزنجى ، وسفيان بن
عيينة ، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث « مالك بن أنس » في المدينة فلزمته ،
ولقى من عطفه ومن فضله ما جعله يحبه ويجله . « عن يonus بن عبد الأعلى

أنه سمع الشافعى يقول : «إذا ذكر العلماء فمالك النجيم ، وما أحد أمن على من مالك بن أنس». الانتقاء ص . ٢٣

على أن نشأة الشافعى لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث ، ولا استعداده استعدادهم .

لقد توجه في أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس ، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع . «حُكى عن مصعب الزبيري قال : كان أبي والشافعى يتناشدان ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظاً وقال : لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يختملون هذا» . معجم الأدباء ج ٦ ص ٣٨٠ .

وكان الشافعى بطبعه نهما في العلم ، يلتمس كل ما يجده من فنونه ، وقد ذكر من ترجموا له : أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن ، وعالج التنجيم والطبل ، وربما كان درسهما في إحدى رحلاته إلى العراق ، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطبل فرعاً من العلم الطبيعي . والعلم الرياضي والعلم الطبيعي قسان من أقسام الفلسفة التي كان مسلمه العراق أخذوا يقتسمون ريحها . وكان الشافعى مغرى بالرجم في شبابه ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرمامة يدعوه لهم ويعدهم بالمال ، ويظهر : أنه لم يكن شديداً في جرح الرجال كعادة أهل الحديث . وقد نقل

صاحب كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» حكاية تدل على سخرية الشافعى من تزمنت المزكين .

«قال الشافعى — رضى الله عنه — حضرت بمصر رجلا مزكيًا يجرحه رجالا ، فسئل عن سببه وألح عليه فقال :رأيته يقول قاعداً ، قيل وما في ذلك؟ قال : يرد الريح من رشاشه على بدنـه وثيابـه فيصلـى فيه . قيل : هل رأيته أصابـه الرشاش وصلـى قبل أن يغسل ما أصابـه ؟ قال : لا ولكن أراه سيفعل» .

ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥

وكان في العلماء المعاصرين للشافعى ، بل أهل الرأى منهم ، بل أهل الحديث ، من لا يراه معنا في الحديث . «عن أبي عبد الله الصاغنى يحدث عن يحيى بن أكثم قال : كنـا عند محمد بن الحسن في المناقـرة ، وكان الشافعى رجلا فرشـى العقل والفهم ، صافـى الذهـن ، سرـيع الإصـابة ، ولو كان أكثـر سماعـ الحديث لاستغـنت أمة محمد به عن غيرـه من العلماء». ابن حجر ص ٥٩ .
ولما ذهب الشافعى إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأى على أستاذـه مالـك وعلـى مذهبـه ، وكان أهل الرأى أقوى سندـاً وأعـظم جاهـاً بما لهم من المـكانـة عند اخـلافـاء ، وبـتوـلـيـهم شـؤـون القـضاـء ، ذلكـ إـلى أنهـم أـوسعـ حـيـلةـ في الجـدلـ من أـهلـ الحـديثـ وأنـفـذـ بيـانـاً . ويمـثلـ حالـ الفـريـقـينـ منـ هـذـهـ النـاحـيةـ ، مـارـوىـ عنـ إـمامـيـ أـهلـ الرـأـيـ وأـهلـ الحـديثـ : أبي حـنيـفةـ وـمالـكـ .

روى ابن عبد البر المالكي عن الطبرى قال : وكان مالك قد ضرب بالسياط ، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب فيه . قال : فحدثني العباس بن الوليد قال : خبرنا ذكره عن مروان الطاطري ، أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث : « ليس على مستكره طلاق » ، ثم دس إلية من يسأل عنه ، فحدث به على رؤوس الناس . الانقاء ص ٤٣ ، ٤٤ .

أما أبو حنيفة فينقل في شأنه الموفق المالكي في كتاب « المناقب » : « عن معمر بن الحسن الهروي يقول : اجتمع أبو حنيفة و محمد بن إسحاق عند أبي جعفر المنصور ، وكان جمع العلماء والفقهاء ، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار ، لأمر حزبه ، وبعث إلى أبي حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد ، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذي وقع له إلا أبو حنيفة ، فلما قضيت الحاجة على يديه جلسه عند نفسه ليعرف القضاة والحكام الأمور إليه ، فيكون هو الذي ينفذ الأمور ويفصل الأحكام ، وحبس محمد بن إسحاق ليجمع لابنه المهدى حروب النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته . قال : فاجتمعا يوماً عنده ، وكان محمد بن إسحاق يحسدهما كان يرى من المنصور من تفضيله وتقديره واستشارته فيما ينوبه وينوب رعيته وقضاته وحكامه ، وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغير المنصور عليه ، فقال له : ما تقول يا أبا حنيفة في رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا ، أو ألا يفعل كذا وكذا ، ولم يقل إن شاء الله ، موصولا

باليمن ، وقال ذلك بعد ما فرغ من يمينه وسكت ؟ فقال أبو حنيفة : لا ينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعاً من اليمن ، وإنما كان ينفعه إذا كان موصولاً به . فقال : وكيف لا ينفعه وقد قال جدُّ أمير المؤمنين الأَكْبر أبو العباس عبد الله ابن عباس رضي الله عنهم أن استثناءه جائز ، ولو كان بعد سنة ، واحتجَّ بقوله عزَّ وجلَّ : « وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ » ؟ فقال المنصور لمحمد بن إسحاق : أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه ؟ قال نعم ! فالتفت إلى أبي حنيفة — رحمة الله — وقد علاه الغضب ، فقال تختلف أبا العباس ؟ فقال أبو حنيفة : لم أخالف أبا العباس ، ولقول أبي العباس عندي تأويل يخرج على الصحة ، ولكن بلغنى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلفَ على يمينٍ واستثنى فلا حِنْثٌ عليه ». وإنما وضعناه إذا كان موصولاً باليمن ، وهؤلاء لا يرون خلافتك ، لهذا يتحجون بخبار أبي العباس ، فقال له المنصور كيف ذلك ؟ قال : لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقيّة ، وإن لهم شيئاً متي شاءوا ، يخرجون من بيعتنك ولا يبقى في أعناقهم من ذلك شيء . قال : هكذا ؟ قال : نعم . فقال المنصور : خذوا هذا ، يعني محمد بن إسحاق . فأخذ وجعل رداؤه في عنقه وحبسوه » . ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٤

كان طبيعياً أن يجادل الشافعى عن أستاذه وعن مذهب أستاذه ، وقد هض الشافعى لذلك قويّاً بعقله ، قويّاً بعماه ، قويّاً بعصاشه ، قويّاً بشباب

في عنفوانه ، بوجية عربية . وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبـه : عن محمد بن الحكم قال : سمعت الشافعى يقول : قال لـى محمد بن الحسن : صاحبـنا أعلم من صاحبـكم ، يعني «أبا حنيفة ومالك» ، وما كان على صاحبـكم أن يتكلـم ، وما كان لصاحبـنا أن يـسـكت . قال : ففضـبت وقلـت : نـشـدـتك الله من كـانـ أـعـلـمـ بـسـنـةـ رسولـ اللهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، مـالـكـ أوـأـبـوـ حـنـيـفـةـ ؟ قال : مـالـكـ ، لـكـنـ صـاحـبـناـ أـقـيـسـ . فـقلـتـ : نـعـمـ وـمـالـكـ أـعـلـمـ بـكـتـابـ اللهـ تـعـالـىـ وـنـاسـخـهـ وـمـنـسـوـخـهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـنـ أـبـيـ حـنـيـفـةـ . فـنـ فـنـ كـانـ أـعـلـمـ بـكـتـابـ اللهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـهـ كـانـ أـوـلـىـ بـالـكـلـامـ » . الـانتـقاءـ صـ ٢٤ـ .
كان هذا الجـاجـ عن مذهبـ مـالـكـ ، في قـدـومـ الشـافـعـىـ إـلـىـ الـعـرـاقـ أـوـلـ مـرـةـ . وأـقـامـ الشـافـعـىـ فـيـ الـعـرـاقـ زـمـنـاـ غـيرـ قـصـيرـ ، وـدرـسـ فـيـهـ كـتـبـ مـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ وـغـيرـهـ مـنـ أـهـلـ الرـأـيـ فـيـ ماـ درـسـ فـيـ الـعـرـاقـ ، وـلـازـمـ مـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ ، وـرـدـ عـلـ بعضـ أـقـوـالـهـ وـآرـائـهـ نـصـيـرـاـ لـأـهـلـ الـحـدـيـثـ .

ولا شكـ أنـ الشـافـعـىـ فـيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ كـانـ مـتـاثـرـاـ بـمـذـهـبـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ ، وـمـتـاثـرـاـ بـمـلاـزـمـهـ عـالـمـ دـارـ الـهـجـرةـ ، فـهـوـ كـانـ يـدـافـعـ عنـ مـذـهـبـهـ بـدـافـعـ حـيـاتهـ لـأـسـتـاذـهـ وـأـنـصـارـهـ أـسـتـاذـهـ الـمـسـتـضـعـفـينـ .

أما ابن البرّ اـلـكـرـ دـرـىـ فـهـوـ يـرـوىـ فـيـ سـبـبـ اـخـتـلـافـ الشـافـعـىـ عـلـىـ مـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ روـاـيـاتـ يـقـولـ فـيـهاـ : «ـعـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الشـافـعـىـ : لـمـ يـعـرـفـ الشـافـعـىـ لـمـ حـمـدـ حـقـهـ ، وـأـحـسـنـ إـلـيـهـ فـلـ يـفـ لـهـ . وـعـنـ إـسـمـاعـيلـ الـمـزـنـىـ ، قـالـ الإـمـامـ الشـافـعـىـ :

حسبت بالعراق لدَيْنِ فسمع محمدُ بِي خلصني، فأنا له شاً كر من بين الجميع .
وعن ابن سماعة قال : أفلس الشافعى غير مرّة فجاء إلى محمد فخذّل أصحابه
فجمع له مائة ألف ، فكان فيه قضاء حاجة ، ثم أفلس مرة أخرى فجمع له
سبعين ألف درهم ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : لا أذهب مروءتي من بين أصحابي ،
لو كان فيك خير لـكفالك ما جمعت لك ولعقبك . وكان قبل هذا مولعاً بكتبه
يناظر أوساط أصحابه ويعده نفسه منهم ، فلما آتى محمدًا الثالثة أظهر الخلاف » .

المناقب ج ٢ - ص ١٥٠ و ١٥١ .

والشافعى نفسه يرد على ذلك ، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ
ابن أبي توبه قال : سمعت الشافعى يقول : يقولون إنما أخالفهم للدنيا ،
وكيف يكون ذلك والدنيا معهم ؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه ؟
وقد منعت ما أَلَّذَ من الطعام ، ولا سبيل إلى النكاح — يعني إنما كان به من
ال بواسير — ولكن لست أخالف إلا من خالف سنة رسول الله . ابن حجر

ص ٧٦

آثاره وكتبه

ولما عاد الشافعى إلى بغداد في سنة ١٩٥ هـ - ٨١٠ م ليقيم
فيها سنتين اشتغل بالتدريس والتأليف . وروى البغدادي في «كتاب تاريخ
بغداد» :

«عن أبي الفضل الزجاج يقول : لما قدم الشافعى إلى بغداد وكان في
الجامع إما نيف وأربعون حلقة ، أو خمسون حلقة ، فلما دخل بغداد ما زال
يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم : قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون : قال
 أصحابنا . حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره » . ص ٦٨ ، ٦٩ .

واختلف إلى دروس الشافعى جماعة من كبار أهل الرأى كأحمد بن حنبل
وأبي نور ، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى إلى مذهبهم . ويروى عن أحمد بن
حنبل أنه قال : « ما أحد من أصحاب الحديث حمل محيرة إلا ول الشافعى
عليه منه » ، فقلنا : يا أبا محمد كيف ذلك ؟ قال : إن أصحاب الرأى كانوا

يَهْرُوْنَ بِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ حَتَّى عَلَمُهُمُ الشَّافِعِيُّ وَأَقَامَ الْحِجَةَ عَلَيْهِمْ »، يَمِّنَ مِنَ الْأَنْتَقَاءِ ص ٧٦.

وَوُضِعَ الشَّافِعِيُّ فِي بَغْدَادَ كِتَابَ « الْحِجَةَ ». « رَوَى ابْنُ حِجْرٍ عَنْ شَمَّا الْبُوْيَطِيِّ أَنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ : اجْتَمَعَ عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَسَأَلْنَاهُ أَنْ أَذْكُرَ لَهُ كِتَابَ أَبِي حَنْفَةَ ، فَقَالَ : لَا أَعْرِفُ قَوْلَهُمْ حَتَّى أَنْظُرَ فِي كِتَابِهِمْ . فَأَمْرَرَ فَكِتْبَتِيَّ كِتَابَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسْنِ ، فَنَظَرَتْ فِيهَا سَنَةً حَتَّى حَفَظَهَا ، ثُمَّ وَضَعَتْ الْكِتَابَ الْبَغْدَادِيَّ ، يَعْنِي « الْحِجَةَ ». ص ٧٦

وَيَظْهُرُ مِنْ ذَلِكَ : أَنَّ مَذَهَبَ الشَّافِعِيِّ الْقَدِيمَ الَّذِي وُضَعَ فِي بَغْدَادَ كَانَ فِي جَلْ أَمْرِهِ رَدًّا عَلَى مَذَهَبِ أَهْلِ الرَّأْيِ ، وَكَانَ قَرِيبًا إِلَى مَذَهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ .

وَرَوَى الْبَغْدَادِيُّ عَنْ حَرْمَلَةَ : أَنَّهُ سَمِعَ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ : « سُمِّيَتْ بِبَغْدَادِ نَاصِرِ الْحَدِيثِ ». ج ٢ ص ٦٨ .

وَنَقَلَ ابْنُ حِجْرٍ عَنِ الْبَيْهِقِيِّ : أَنَّ كِتَابَ « الْحِجَةَ » الَّذِي صَنَفَهُ الشَّافِعِيُّ بِبَغْدَادَ حَمْلَهُ عَنْهُ الزَّعْفَرَانِيُّ ، وَلَهُ كِتَابٌ أُخْرَى حَمْلَهُ غَيْرُ الزَّعْفَرَانِيُّ ، مِنْهَا : كِتَابُ « السِّيرَ » ، رَوَايَةُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الشَّافِعِيِّ » : وَفِي كِتَابِ كَشْفِ الظُّنُونِ :

« الْحِجَةَ ، لِلإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ، وَهُوَ مُجَلَّدٌ ضَخْمٌ أَلْفَهُ بِالْعَرَاقِ ، إِذَا أَطْلَقَ

«بِمِنْ مَذَهْبِهِ يَرَدُ بِهِ هَذَا التَّصْنِيفُ ، قَالَهُ الْأَسْنَوِيُّ فِي الْمُهَمَّاتِ . وَيَطْلُقُ
مَا أَفْتَى بِهِ هَنَاكَ أَيْضًا» .

جـ عـ شـ اـتـهـىـ الشـافـعـىـ إـلـىـ مـصـرـ فـآزـرـهـ تـلـامـيـذـ مـالـكـ ،ـ حـتـىـ إـذـ وـضـعـ مـذـهـبـهـ
أـضـرـيـدـ وـأـخـذـ يـؤـلـفـ الـكـتـبـ رـدـاـ عـلـىـ مـالـكـ تـفـكـرـوـالـهـ وـأـصـابـتـهـ مـنـهـ مـحـنـ .ـ

أـمـرـ دـادـ شـ اـتـهـىـ الشـافـعـىـ إـلـىـ مـصـرـ فـآزـرـهـ تـلـامـيـذـ مـالـكـ ،ـ حـتـىـ إـذـ وـضـعـ مـذـهـبـهـ
أـخـالـفـ مـنـ أـحـادـيـهـ إـلـاـ سـتـةـ عـشـرـ حـدـيـثـاـ ،ـ فـنـظـرـتـ فـإـذـ هـوـ يـقـولـ بـالـأـصـلـ .ـ

دـادـ دـلـاـلـ شـ اـتـهـىـ الشـافـعـىـ فـرـدـهـ عـلـىـ مـالـكـ ،ـ الـمـسـائـلـ الـتـىـ تـرـكـ الـأـخـبـارـ الصـحـيـحـةـ
عـلـىـ فـيـهـ بـقـوـلـ وـاحـدـ مـنـ الصـحـابـةـ أـوـ بـقـوـلـ وـاحـدـ مـنـ التـابـعـينـ ،ـ أـوـ لـرـأـيـ نـفـسـهـ

دـادـ دـلـاـلـ شـ اـتـهـىـ الشـافـعـىـ فـرـدـهـ عـلـىـ مـالـكـ ،ـ الـمـسـائـلـ الـتـىـ تـرـكـ الـأـخـبـارـ الصـحـيـحـةـ
وـذـلـكـ أـنـهـ رـبـماـ يـدـعـىـ الإـجـمـاعـ ،ـ وـهـوـ مـخـتـلـفـ فـيـهـ .ـ

دـادـ دـلـاـلـ شـ اـتـهـىـ الشـافـعـىـ أـنـ اـدـعـاءـ أـنـ إـجـمـاعـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ حـجـةـ ،ـ قـوـلـ ضـعـيفـ» .ـ

الرازي ص ٢٦ .

وـبـرـوـىـ بـعـضـ الرـوـاـةـ :ـ أـنـ الشـافـعـىـ إـنـاـ وـصـعـ الـكـتـبـ عـلـىـ مـالـكـ لـأـنـهـ
بـلـغـهـ أـنـ بـالـأـنـدـاسـ قـلـنـسـوـةـ مـالـكـ يـسـتـسـقـىـ بـهـ ،ـ وـكـانـ يـقـالـ لـهـ :ـ قـالـ رـسـوـلـ اللهـ
صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ،ـ فـيـقـولـونـ :ـ قـالـ مـالـكـ .ـ فـقـالـ الشـافـعـىـ :ـ إـنـ مـالـكـ بـشـرـ

يخطىء . فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه . وكان يقول :

استخرت الله تعالى في ذلك . ابن حجر ص ٧٦ .

ومذهب الشافعى الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته
وينم عن عبقريته ، ويبهر استقلاله .

« سئل أَحْمَدَ: مَا تَرَى فِي كِتَابِ الشَّافِعِيِّ الَّتِي عَنْدَ الْعَرَاقِيِّينَ أَهْىَ أَحَبَّ
إِلَيْكَ ، أَمِ الَّتِي بِمِصْرِ؟ قَالَ: عَلَيْكَ بِالْكِتَابِ الَّتِي وَضَعَهَا بِمِصْرِ فَإِنَّهُ وَضَعَ
هَذِهِ الْكِتَابَ بِالْعَرَاقِ لَمْ يُحْكِمْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِصْرَ فَأَحْكَمَ تِلْكَ ، كَمَا يُروَى
الْذَّهْبِيُّ فِي تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ ». هامش الانتقاء ص ٧٧ .

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب . وقد
سرد البهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ - ١٠٦٦ م كتب الشافعى
ونصها عنه ابن حجر في ص ٧٨ :

(الرسالة القديمة ، ثم الجديدة — اختلاف الحديث ، جماع العلم —
إبطال الاستحسان — أحكام القرآن — بيان الفرض — صفة الأمر
والنهى — اختلاف مالك والشافعى — اختلاف العراقيين — اختلافه مع
محمد بن الحسن — كتاب على وعبد الله — فضائل قريش — كتاب الأم .
وعدة كتب الأم : مائة ونيف وأربعمائة كتابا . وحمل عنه حرملة كتابا
كبيراً يسمى «كتاب السنن» ، وحمل عنه المازنى كتابه «المبسوط» وهو

المختصر الكبير، والمنثورات، وكذا المختصر المشهور. قال البيهقي: وبعض كتبه الجديدة لم يُعد تصنيفها، وهي: الصيام — والصداق — والحدود — والرهن الصغير — والإجارة — والجناز — فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده. قال: وربما تركه أكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه في موضع أخرى.

قلت: وهذه الحكایة مفيدة ترفع كثيراً من الأشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعی الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب.

ثم نقل ابن حجر: أن لأصحاب الشافعی من أهل الحجاز وال العراق عنه مسائل وزيدات . قال: وهذا يدل على أنَّ «كتبأً أخرى حملها عنه هؤلاء؛ لأنَّ هذه المسائل ليست في الكتاب المقدم ذكرها» .

وقد ترك ابن حجر في تلخيصه: كتاب «مسند الشافعی» ولا ندرى: أنَّ كان البيهقي قد تركه أيضاً أم لا؟ ويقول الرازي: «إن كتابه المسنن بمسند الشافعی كتاب مشهور في الدنيا». ص ١٤٦ .

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعی إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلةها التفصيلية عند ما تكون دلائلها نصوصاً .

وأهل الحديث لكترة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضاً لذكر الدلائل من أهل الرأى

فالمجاه الشافعى بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين، ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله، وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متّحد في طريقة الاستنباط.

وذلك يشعر بالمجاه فى الفقه التجاھاً جديداً هو اتجاه العقل العلمي الذى لا يعني بالجزئيات والفروع.

ويدل على أن اتجاه الشافعى لم يكن إلى تحميص الفروع : ما نقله ابن عبد البر في «الانتقاء» من : أن أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ قَالَ : «قَالَ الشَّافِعِيُّ لِنَا : أَمَا أَنْتُمْ فَأَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ مِنِّي، فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ صَحِيحًا فَأَعْلَمُنِي أَنْ يَكُونَ كُوفِيًّا، أَوْ بَصْرِيًّا أَوْ شَامِيًّا، أَذْهَبُ إِلَيْهِ إِذَا كَانَ صَحِيحًا». ص ٧٥
وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه ، قال أبو محمد بن أخت الشافعى عن أمّه قالت : ربما قدمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعى ، وكان يستيقى ويقدّرك ثم ينادى : يا جارية ، هلمى مصباحا . فتقدّمه ويكتب ما يكتب ، ثم يقول : ارفعيه . فقيل لأحمد : ما أراد بردّ المصباح ؟ قال : الظامة أجلى للقلب . مفتاح السعادة ج ٤ ص ٩١

وليس هذا النوع من التفكير المهدى في ظلمة الميل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع ، بل هو تفكير من يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها ، وذلك : هو النظر الفلسفى .

قال ابن سينا في الشفاء : « إنما لا نشتغل بالنظر في الجرئيات لكونها لا تنتهي ، وأحوالها لا تثبت . وليس عالمنا بها من حيث هي جزئية تفيدنا كала حكمياً أو تبلغنا غاية حكمية ، بل الذي يهمنا هو النظر في الكلمات ». وكان أحمد يقول : الشافعى فيلسوف في أربعة أشياء : في اللغة واختلاف الناس — والمعانى — والفقه . (الرازى ص ٣٥) . وقد حاول الشافعى : أن يجمع أصول الاستنباط الفقهى وقواعدها على ممتاز ، وأن يجعل الفقه تطبيقاً لقواعد هذا العلم . وبهذا يمتاز مذهب الشافعى من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز .

وضع الشافعى لعلم أصول الفقه

إذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية عالمية فهو أيضاً : أول من وضع مصنفاً في العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمي ، بتصنيفه في أصول الفقه . قال الرازى : اتفق الناس على أن أول من صنف في هذا العلم — أي علم أصول الفقه — الشافعى ، وهو الذى رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها في القوة والضعف .

وروى : أن عبد الرحمن بن مهدى ، التمس من الشافعى وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه : شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعى رضى الله عنه « الرسالة » وبعثها إليه ، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل . ثم قال الرازى : واعلم : أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة

« أرسططاليس » إلى علم « المنطق »، وكنسبة « الخليل بن أحمد » إلى علم « العروض »

وذلك لأن الناس كانوا قبل « أرسططاليس » يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ، لكن ما كان عندهم قانون مخاص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين ، فلا جرم ، كانت كلاماتهم مشوشة ومضطربة ؛ فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى ، فلما يفلح .

فاما رأى « أرسططاليس » ذلك اعتزل عن الناس مدة مد IDEA واستخرج علم « المنطق »، ووضع للخلق بسببه قانونا كلية يرجع إليه في معرفة الحدود والبراهين .

وكذلك الشعراء كانوا قبل « الخليل بن أحمد » ينظمون أشعارا ، وكان اعتيادهم على مجرد الطبع ، فاستخرج « الخليل » علم « العروض » فكان ذلك قانونا كلية في معرفة صالح الشعر ومحاسده . فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعى يتكممون في مسائل « أصول الفقه » ويستدلون ، ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها ، وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى علم « أصول الفقه » ووضع للخلق قانونا كلية يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع .. ثم يقول الرازى :

واعلم أن الشافعى صنف كتاب «الرسالة» ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب «الرسالة»، وفي كل واحد منها علم كثير. ص ٩٨ - ١٠٢
ويقول «بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى» المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ١٣٩٢ م في كتابه في أصول الفقه، المسمى بالبحر الخيط: «فصل» :
الشافعى أول من صنف في أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة ، وكتاب
أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وكتاب جماع
العلم ، وكتاب القياس ، الذى ذكر فيه ؟ تضليل المعزلة ورجوعه عن قبول
شهادتهم

ثم تبعه المصنفوون في علم الأصول . قال أحمد بن حنبل : « لم نكن
نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى » .

وقال الجويني في شرح الرسالة . لم يسبق الشافعى أحد في تصانيفه
«الأصول» ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس «لتحصيص عموم» وعن بعضهم
«القول بالمفهوم» ، ومن بعدهم لم يقل في الأصول شيء ولم يكن لهم فيه قدم ؟
فإنارأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا
فيه . من نسخة خطية بالـ مـكـتبـةـ الـأـهـلـيـةـ بـبـارـيسـ .

ويقول ابن خلدون في المقدمة : « وكان أول من كتب فيه - أى في علم
أصول الفقه - الشافعى رضى الله عنه ، أملأ فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في :
الأوامر والنواهى ، والبيان ، والخبر ، والنسخ ، وحكم الدالة المنصوصة ، من

القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً . ص ٣٩٧

وفي كتاب «طبقات الفقهاء» للقاضي شمس الدين العثماني الصدفي : «وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه ، من ذلك : أصول الفقه؛ فإنه أول من صنف أصول الفقه بلا خلاف ، ومن ذلك : كتاب القسامـة ، وكتاب الجزـية ، وكتاب قـتـال أـهـلـ الـبـغـى». من نسخة خطـية بـدارـ الكـتبـ الأـهـلـيةـ بـمـارـيسـ .

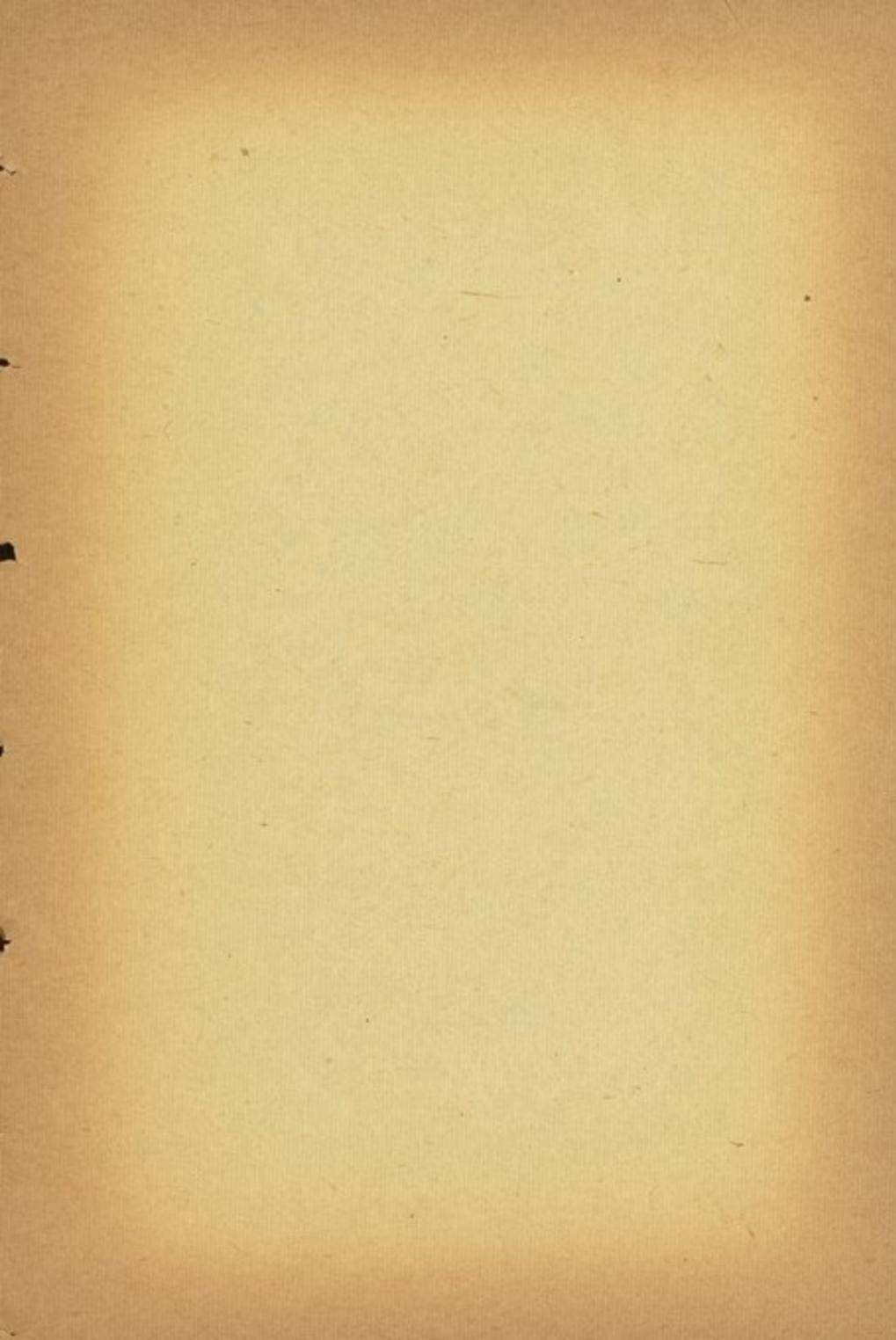
ويقول صاحب كتاب «كشف الظنون» : «أول من صنف فيه الإمام الشافعى» ذكره الأستوى في التمهيد، وحـكـىـ الإـجـمـاعـ فيـهـ . ص ٣٣٤ـ والباحثون في هذا الشأن من الغربيين يرون في الشافعى : واضعاً «أصول الفقه». يقول «جولد زيهـر» في مقالته في كلمة (فقـهـ) في دائرة المعارف الإسلامية : «أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعـىـ من أصول الفقهـ، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصولـ. وقد ابتدعـ فيـ (رسـالتـهـ) نظامـاـ لـالـقـيـاسـ العـقـلـىـ الذـىـ يـنـبـغـىـ الرـجـوعـ إـلـيـهـ فيـ التـشـرـيعـ، منـ غـيرـ إـخـلـالـ بـالـكـتـابـ وـالـسـنـةـ منـ الشـأـنـ المـقـدـمـ، وـرـتـبـ الـاستـنـبـاطـ مـنـ هـذـهـ الأـصـوـلـ، وـوـضـعـ الـقـوـاعـدـ لـاـسـتـعـاهـاـ بـعـدـ ماـ كـانـ جـزـافـاـ» على أنا نجد في كتاب الفهرست في ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى «كتاب أصول الفقه» .

ويقول الموفق المكي في كتابه : « مناقب الإمام الأعظم » نقلًا عن طلحة بن محمد بن جعفر ؟ أن أبي يوسف أول من وضع الكتب في « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة . ج ٢ ص ٢٤٥ .

ونقل ذلك طاش كبرى زاده في كتابه « مفتاح السعادة » ج ٢ ص ١٠٢ ولم يرد كتاب في هذا العلم ، فيها أورده صاحب « الفهرست » ، لأبي يوسف من الكتب . وإذا صبح أنَّ لـأبي يوسف أو لـمحمد كتاباً في أصول الفقه فهو فيها يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعييه أهل الحديث من الاستحسان . وقد يؤيد ذلك ، أن صاحب « الفهرست » ذكر في أسماء كتب أبي يوسف « كتاب الجوامع » ألفه ليحيى بن خالد ، يحتوى على أربعين كتاباً ، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخذ به . ولم يكن في طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من همهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها . النزوع إلى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعًا رحباً . على أن القول بأنَّ أبي يوسف هو أول من تكلم في (أصول الفقه) على مذهب أبي حنيفة لا يعارض القول بأنَّ الشافعى هو الذي وضع (أصول الفقه) علماً ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط حكم شرعى .

وقد لا يكون بعيداً عن غرض « الشافعى » في وضع « أصول الفقه » : أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ويمهد للوحدة التي دعا إليها الإسلام .

اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ



اللبيث بن سعد

من المستغلين بتاريخ الثقافة الإسلامية من يريدون أن يخسروا بعنائهم
الجانب المصري من هذه الثقافة فيدرسوا سير العلماء والأدباء من المصريين
الذين ساهموا في نشأة المعارف الإسلامية، وساهموا في السير بها إلى إكمالها.
وهم بهذه الدراسة يمهدون لدرس خصائص الجانب المصري من الثقافة
الإسلامية.

ويرى أهل هذا المذهب أن في ذلك عوناً على استيفاء البحث في الآداب
والمعارف الإسلامية.

فإن الثقافة الإسلامية ذات فروع وعناصر متفاوتة، يجب تعرف ألوانها
ومذاهبها للإحاطة بكل ما لهذه الثقافة من خصائص ومميزات.

وفي هذا الاتجاه نوع من توزيع العمل بين المستغلين بخدمة غرض مشترك،
وهو تلك الثقافة الإسلامية، التي هي تراث مجيد للشرق الإسلامي، بل هي
في تاريخ الثقافات الإنسانية تراث مجيد.

ولمصر خاصةً فائدةً من هذا الاتجاه ، إذ هو سبيل إلى توثيق الصلة بين الماضي والحاضر ، وإلى مراعاة الاتساق بين حلقات التاريخ .

وحق على المصلحين والمجددين في جماعة من الجماعات أن يتبنّوا ما سجل التاريخ من منازع هذه الجماعة في علومها وأدابها حتى يسيروا في تجديدهم وإصلاحهم على هدى .

غير أن المصريين متهمون بأنهم يبغضون فضل أهل الفضل منهم ، على حين يمنحون الغرباء تقديرهم جزافاً . فواجب علينا أن نبرئ من هذه التهمة قوماناً . ومن وسائل ذلك أن نحيي ذكرى العظاماء من أسلافنا ، وأن ننصف اليوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم كل ما يستحقون من إنصاف .

* * *

يذكر المؤرخون أن الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ قال :

«الليث أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» . وفي رواية عن الشافعى : «ضَيْعَهُ قومه» .. وفي أخرى : «ضَيْعَهُ أصحابه» .

قال ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ في كتابه المسى «كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليميثية» :

«لـكـنـهـ ماـ صـنـفـ شـيـئـاًـ مـنـ الـكـتـبـ وـلـاـ دـوـنـ أـصـحـابـهـ الـمـسـائـلـ عـنـهـ» .

ولذلك قال الشافعى : ضيّعه أصحابه . يعني لم يدوّنوا فقهه كما دوّنوا فقه مالك وغيره ، وإن كان بعضهم قد جمع منها شيئاً » . (ص ٩) .

وقول ابن حجر إن الليث لم يصنف شيئاً من الكتب ، يخالفه ما يذكره ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ ، في كتاب الفهرست ، من أن لليث بن سعد « كتاب التاريخ » و « كتاب مسائل في الفقه » .

وإذا كان قوم الليث بن سعد أو أصحابه قد ضيّعواه على ما يقول الشافعى فاعلماً نحفظ اليوم بعض ما ضيّعوا .

* * *

الليث بن سعد يُكنى أبا الحارث ، ومن المؤرخين مَن يقول : هو ليث بن سعد بن عبد الرحمن ، وهو فيما يذكر ابن خلكان مولى بني فهم . وبنو فهم بطون من قيس . لذلك يقال مولى بني قيس .

ويقول أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب تاريخ بغداد : « ليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث ، فقيه أهل مصر ، يقال إنه مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي . وأهل بيته يقولون : نحن من الفرس من أهل أصفهان . وروى عن الليث أنه قال مثل ذلك . والمشهور أنه فهمي ، ولد بقرقشنة ، وهي قرية من أسفل أرض مصر » .

(ج ١٣ ص ٢)

وسياق الكلام يفيد أن المشهور كون الليث عربياً من «فهم». ونقل البغدادي رواية عن أبي مسلم صالح بن أحمد بن عبد الله العجلى عن أبيه قال: ليث بن سعد يكفى أبو الحارث، مصرى فهى ثقة». (ص ١٣).

قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ في كتاب «صبح الأعشى» :

«قلت ومن بلادها — أى القليوبية — بلدنا قلقشندة وهى بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وإليها ينسب الليث بن سعد، الإمام الكبير. وقد ذكر ابن يونس في تاريخه أنه ولد بها. قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثبات عندنا . قال ابن خلkan : بفتح القاف وسكون اللام وفتح الفاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة — وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية . وأبدل ياقوت في معجم البلدان اللام راء ، وهو الجارى على ألسنة العامة ، وعليه جرى القضاوى فيما رأيته مكتوباً في خططه ». (ج ٣ ص ٤٠٣)

قال القلقشندى بعد ذلك :

«وقال القضاوى في خططه في الكلام على دار الليث بالفسطاط : وكان له دار بقرقشندة بالريف ، بناها فهد منها ابن رفاعة أمير مصر عناداً له ،

وكان ابن عمه ، فبناها الليث ثانية ، فهدمها ، فلما كانت الثالثة أتاه آت في منامه فقال له : يا ليث ، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَمُّ عَلَى الْذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَعْدَاءً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ فأصبح وقد فوج ابن رفاعة ، فأوصى إليه ومات بعد ثلاثة ...

وترجم له ابن خل كان بالأصبهاني ، ثم قال في آخر ترجمته : ويقال إنه من قلقشندة . قلت : وما قاله ابن يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين : أحدها أنه مصرى ، وأهل البلد أخبار بحال أهل بلادهم من غيرهم . والثانى أنه قريب من زمن الليث ، فهو به أدرى ، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ثم نزل آباءه قلقشندة المذكورة ، وولد بها وسكنها فنسب إليها ، كما وقع في كثير من النسب . وإعادة داره بها بعد هدمها ثلاثة مرات على ما تقدم ذكره في كلام القضاوى ، دليل اعتقاده بشأنها ، وميله إليها . وحيثئذ فلا منافاة بين النسبتين » . ج ٣ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

وهذا الذى يجوزه القلقشندى ليموق بين أول كلام ابن خل كان وآخره يبعده ما نقله هو عن القضاوى ، من أن ابن رفاعة كان ابن عم الليث .
وابن رفاعة المقصود هنا هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى الذى ولى مصر سنة ١٠٩ وتوفي وهو وال عليه سنة ١١٧ . والوليد بن رفاعة عربي صراح ، من فهم ، ليس فى نسبته خلاف ، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضاً عربي فهمى .

وإذا كان لابد لنا من ترجيح بين الآراء المتضاربة في أن الليث بن سعد مولى أو عربى فإننا نميل إلى القول بأنه مولى ، اعتماداً على أقدم المصادر التاريخية التي بين أيدينا . فأبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ يقول في كتاب الطبقات الكبير : « الليث بن سعد ويكنى أبا الحارت مولى قيس » .

وابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٤٠ يقول في كتاب المعارف : « الليث بن سعد ، رضى الله تعالى عنه ، هو مولى اقيس ويكنى أبا الحارت » .

وقد ذكر من ترجموا الليث أنه قال :

« قال لي أبو جعفر المنصور : تلِي لي ؟ قلت : إنني أضعف من ذلك ، إنني رجل من الموالى . قال : ما بك ضعف معى إلا ضعف بدنك ؛ أتريد قوة أقوى مني ؟ فاما إذا أتيت فدَانِي على رجل ». قالوا : وكان الأمراء بمصر لا يقطعون أمرأ دون الليث .

ورواية البغدادى :

« قال الليث : قال لي أبو جعفر : تلِي مصر ؟ قلت لا : يا أمير المؤمنين إنني أضعف من ذلك ، إنني رجل من الموالى . فقال : ما بك ضعف معى ، ولكن ضعفت نيتُك في العمل عن ذلك لي ».

* * *

وُلِدَ الْلَّاِيْثُ بْنُ سَعْدَ سَنَةً ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعَ وَتَسْعِينَ ، وَمَوْلَدُهُ بِقَلْقَشْنَدَةَ ،
الَّتِي هِيَ قَرْيَةٌ مِنْ مَدِيرِيَّةِ الْقَلِيمُوَيَّةِ بِمَرْكَزِ قَلِيمَوْبَ ، وَسَمِعَ عَلَمَاءُ الْمُصْرِيِّينَ
وَالْحِجَازِيِّينَ ، وَظَاهَرَ مِنْذَ شَبَابِهِ فَضْلُهُ .

رُوِيَ ابْنُ حَجْرِ الْعَسْقَلَانِيَّ عَنْ يَحْيَى بْنِ بَكِيرٍ أَنَّهُ قَالَ : « سَمِعْتُ شَرْحَبِيلَ
ابْنَ يَزِيدَ يَقُولُ : أَدْرَكَتِ النَّاسَ فِي زَمْنِ هَشَامَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُمْ مُتَوَافِرُونَ ،
مُثْلِ يَزِيدَ بْنِ حَبِيبٍ ، وَعَبِيْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةِ
وَالْخَارِثَ بْنَ يَزِيدَ ، وَابْنَ هَبِيرَةَ ، وَمَنْ يَقْدِمُ مَصْرَ مِنْ عَلَمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
وَمَنْ عَلَمَاءُ أَهْلِ الشَّامِ لِلرَّبَاطِ ، وَالْلَّاِيْثُ يَوْمَئِذٍ حَدَّثَ شَابًا ، وَإِنَّهُمْ لَيَعْرَفُونَ
فَضْلَهُ وَيَقْدُمُونَهُ وَيُشَارِ إِلَيْهِ . وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفِيَّانَ : سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ بَكِيرًا
يَقُولُ : سَمِعْتُ الْلَّاِيْثَ يَقُولُ : رَأَيْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدَ الْأَنْصَارِيَّ وَقَدْ فَعَلْتُ شَيْئًا
مِنَ الْمُبَاحَاتِ ، فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ ؛ فَإِنَّكَ إِمَامٌ مُنْظَورٌ إِلَيْكَ . قَاتَ : وَيَحْيَى بْنُ
سَعِيدَ تَابِعِيَّ مِنْ شِيَوخِ الْلَّاِيْثِ » .

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا تَمَيَّزَ بِهِ الْلَّاِيْثُ مِنْذَ صِبَاهُ مِنْ فَضْلٍ وَنِبَالَةٍ .

وَرُوِيَ ابْنُ حَجْرٍ أَيْضًا عَنْ عُمَرُو بْنِ خَالِدٍ قَالَ : قَاتَ الْلَّاِيْثَ بِلَغْنَى أَنَّكَ
أَخْذَتَ بِرْكَابَ ابْنِ شَهَابَ الزَّهْرَى . قَالَ : نَعَمْ ، لِلْعِلْمِ ، فَأَمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ فَلَا ، وَاللَّهُ
مَا فَعَلْتُهُ بِأَحَدٍ قَطْ .

ونبل الليث بن سعد من أظهر صفاته ، وقد وصفه بالنبل من ترجموا له
منذ عهد بعيد . ففي طبقات ابن سعد :

« وكان سريّاً من الرجال ، نبيلاً سخياً ، له ضيافة » .

ورحل الليث إلى العراق أيضاً فأخذ عن علمائه ونشر علمه هناك .

ومات الليث — فيما يقول ابن سعد في الطبقات — يوم الجمعة
لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة خمس وستين ومائة ، في خلافة
المهدى » .

وكذلك يقول ابن قتيبة في كتاب المعرف : إنه مات سنة خمس
وستين ومائة .

ويقول أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المتوفى سنة ٣٥٠
في كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضائها عند الكلام على ولاية موسى بن
عيسى العباسى الثانية من قبل الرشيد ، في يوم الاثنين من صفر سنة ١٧٥ :
« وتوفي الليث بن سعد يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين
ومائة ، وصلى عليه موسى بن عيسى » . ص ١٣٤ .

ويقول مثل ذلك الخطيب البغدادى في تاريخ بغداد . وعلى هذا سائر
من ترجموا للّيـث .

ولولا أن ابن سعد صرّح بأنّ الليث مات في خلافة المهدى ، والمهدى

ولى الخلافة من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٩ لحسبنا أن تحريف النسخ هو الذي جعل السبعين ستين . وقد ذكر المؤرخون أن الشافعى لقى الرشيد ، والرشيد ولـى الخلافة سنة ١٧٠ .

روى عن لؤلؤ خادم الرشيد — كما ذكره ابن حجر — قال :

« جرى بين هارون الرشيد و بنت عمـه زبيدة بـنـت جعفر كلام ، فقال هارون : أنت طالق إن لم أـكـنـ منـ أـهـلـ الجـنـةـ ! ثمـ نـدـمـ فـجـمـعـ الفـقـهـاءـ فـاـخـتـلـفـواـ ، ثمـ كـتـبـ إـلـىـ الـبـلـادـ فـاـسـتـحـضـرـ عـامـاءـهـ إـلـيـهـ ، فـلـمـ اـجـتـمـعـواـ جـلـسـاـ فـاـخـتـلـفـواـ ، وـبـقـىـ شـيـخـ لـمـ يـتـكـلـمـ وـكـانـ فـيـ آـخـرـ الـجـلـسـ — وـهـوـ الـأـلـيـثـ بـنـ سـعـدـ — قـالـ : فـسـأـلـهـ ، قـالـ : إـذـاـ أـخـلـىـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ مـجـلـسـهـ كـلـمـهـ . فـصـرـفـهـمـ ، قـالـ : يـدـنـيـنـيـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ . فـأـدـنـاهـ ، قـالـ أـتـكـلـمـ عـلـىـ الـأـمـانـ ؟ قـالـ : نـعـمـ . فـأـمـرـ بـاـحـضـارـ مـصـحـفـ فـأـحـضـرـ ، قـالـ : تـصـفـحـهـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ حـتـىـ تـصـلـ إـلـىـ سـوـرـةـ الرـحـمـنـ فـاقـرـأـهـاـ . فـفـعـلـ فـلـمـ اـتـهـىـ إـلـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : « وـلـمـ خـافـ مـقـامـ رـبـّـ جـنـتـانـ » قـالـ : أـمـسـكـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ، قـلـ : وـالـلـهـ . قـالـ : فـاشـتـدـ ذـلـكـ عـلـىـ هـارـونـ ، قـالـ : يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ، الشـرـطـ أـمـلـكـ . قـالـ : وـالـلـهـ ! حـتـىـ فـرـغـ الـيـمـينـ . قـالـ : قـلـ إـنـىـ أـخـافـ مـقـامـ رـبـيـ . قـالـ ذـلـكـ ، قـالـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ، فـهـىـ جـنـتـانـ وـلـيـسـ بـجـنـةـ وـاحـدـةـ . قـالـ : فـسـمـعـنـا التـصـفـيـقـ وـالـفـرـحـ مـنـ وـرـاءـ السـتـرـ ، قـالـ لـهـ الرـشـيدـ : أـبـحـسـنـتـ . وـأـمـرـ لـهـ بـالـجـوـائزـ وـالـخـلـعـ ،

وأمر له باقطاع الجزء ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرّماً .
وروى ابن حجر أيضاً عن الليث بن سعد أنه قال : « لما قدمت على
هارون الرشيد قال لي : يا ليث ، ما صلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ،
صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتي الكدر ،
فإذا صفا رأس العين صفت العين . قال : صدقت يا أبا الحارث » .

وذكر أبو عمر الكندي في كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضائتها ، عند
الكلام على أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي ، الذي ولى القضاء بمصر
من قبل الهادى سنة سبعين ومائة :

« ان عمران الطائى صاحب البريد شفع إلى الحزمى في خصم فكتب
إليه الحزمى : ما أنت والقضاء ؟ عليك تدبّر دوابك وبراذعها وكنس
زبدها . فكتب إلى هارون يبغىه ويقول : إن الناس قد شکوه . وأنى كتاب
هارون إلى داؤد بن يزيد بن حاتم ، وكان يومئذ والياً على مصر ، يأمره أن
يوقف الحزمى للناس ، فأقامه داؤد فأثنى الناس عليه خيراً ، وركب الليث
ابن سعد ، وعاصم بن العلاء القاسى ، وعبد الله بن هبعة إلى الأمير ، فأثنوا
عليه ، فقال الحزمى لداؤد : قد جاءتنى فرحة فيها لباس العافية مما أنا فيه ،
ولست تصل رحمى بمثل إعفافى ، وقد رضيت لك المفضل بن فضالة . فلم يزل به
حتى أغاره » .

وليس لنا بعد هذه الدلائل إلا أن نوافق جمهرة المؤرخين على أن الليث بن سعد توفي سنة ١٧٥ وأن ما ذكره ابن سعد في الطبقات غير صحيح. ولما توفي الليث بن سعد فجمع الناس فيه ، وشيعوا جنازته إلى قبره في جموع زاخرة ، ودفن بالقرافة المعروفة الآن بقرافة الإمام الشافعى .

قال خالد بن عبد السلام الصدق - كما في الرحمة العينية بالترجمة اليمينية - «جالست الليث بن سعد ، وشهدت جنازته مع أبي فارأيت جنازةً قط بعدها أعظم منها ، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن ويعزى بعضهم ببعض ، فقلت لأبي : يا أبا كأن كلَّ واحدٍ من هؤلاء صاحبُ الجنازة ! فقال : يا بني ، كان عالماً كريماً ، حسن العقل ، كثير الإفضل ، يا بني لا ترى مثله أبداً» .

ويقول على مبارك باشا في خططه :

«وكان قبره مسطبة ، ثم بنى عليها هذا المشهد بعد سنة أو بعين وستمائة . وقيل إن الذي بناه ابن التاجر » .

وقد فصل المقريزى ما كان من أمر هذا القبر منذ كان مسطبة إلى عهده ، وقال :

«ويجتمع بهذه القبة في ليلة كل سبت جماعة من القراء ، فييتلون

القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختتموا ختمة كاملة عند السحر ، ويقصد
المبيت عندهم للتبرك بقراءة القرآن عدّة من الناس ، ثم تفاحش الجمع وأقبل
النساء والأحداث والغوغاء فصار أمراً منكراً ، لا ينصحون لقراءة ولا يتبعظون
بمواعظ ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز ، ثم زادوا في التعدي حتى
حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور ، وبنوا مبانٍ تخذلها مراحيليس
وسقايات ماء » .

هذا ما كان في عهد المقرizi المتوفى سنة ٨٤٥ . ولست ندرى ما يفعل
الناس اليوم عند قبر الإمام العظيم .

* * *

يعنى أكثر المترجمين للإِلَيْث بأمره محدثاً وفقيرها . وابن سعد يقول :
« وكان ثقة كثير الحديث صحيحه وكان قد اشتغل بالفتوى في زمانه
بمصر » . وبحسبه أن يكون من مشايخ البخاري ومسلم . أما فقهه فيقول
صاحب الفهرست : « الایث بن سعد من أصحاب مالك وعلى مذهبـه ،
ثم اختار لنفسـه ، وكان يكاتب مالـكا ويـسألـه » .

وقال ابن حجر :

« وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق في الطبقات أن علم التابعين من أهل
مصر تناهى إلى الایث بن سعد . قال : وقال ابن وهـب : وسائل الـایـث تـقـرـأـ»

عليه ، فرت به مسألة فاستحسنوها ، فقال رجل : ما أحسن ما قال الليث ،
كأنه كان يسمع مالـكـاً فيجيب . فـقال ابن وهب : بل لعل مالـكـاـنـ
يسمع الليـثـيـجـيـبـ فيـجـيـبـ ، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقـهـ
من الليـثـ » .

ورواياتهم مختلفة في المفاضلة بين مالـكـ بن أنسـ والـلـيـثـ بن سـعـدـ ، وـمـنـ
الـنـاسـ مـنـ يـسـوـىـ بـيـنـهـمـ . فـقـيـ كـتـابـ منـاقـبـ سـيـدـنـاـ الإـمـامـ مـالـكـ لـلـشـيـخـ عـيـسىـ
ابـنـ مـسـعـودـ الرـزاـوـيـ :

« وقال ابن وهب : لقيت ثلاثة وستين عـالـماـ ، ولو لا مـالـكـ بن أـنـسـ
والـلـيـثـ بن سـعـدـ لـضـلـلتـ فـيـ الـعـلـمـ » .

وإنـماـ وـقـعـتـ المـفـاضـلـةـ بـيـنـ الـلـيـثـ بنـ سـعـدـ وـبـيـنـ مـالـكـ بنـ أـنـسـ دونـ غـيـرـهـ
مـنـ فـقـهـاءـ الـعـصـرـ لأنـ الـلـيـثـ بنـ سـعـدـ مـعـدـودـ مـنـ أـصـحـابـ الـحـدـيـثـ . وـقـدـ ذـكـرـهـ
ابـنـ قـتـيبةـ فـيـ أـصـحـابـ الـحـدـيـثـ دـوـنـ أـصـحـابـ الرـأـيـ . وـمـالـكـ بنـ أـنـسـ يـعـتـبرـ
زـعـيمـ أـصـحـابـ الـحـدـيـثـ .

وعـنـدـيـ أنـ الـلـيـثـ عـلـىـ أـنـ أـقـرـبـ إـلـىـ سـمـتـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ فـيـ زـهـدـهـ وـوـرـعـهـ ،
وـأـقـرـبـ إـلـىـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ فـيـ كـثـرـةـ روـايـتـهـ وـحـفـظـهـ . كـانـ طـرـازـاـ وـحدـهـ بـيـنـ
أـهـلـ الـحـدـيـثـ ، وـهـوـ الـذـيـ مـهـدـ لـلـشـافـعـيـ ذـلـكـ المـنـهـجـ الوـسـطـ بـيـنـ أـصـحـابـ
الـرـأـيـ وـأـصـحـابـ الـحـدـيـثـ .

وروى عن الشافعى أنه قال :

« ما فاتنى أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث بن سعد ، وابن أبي ذئب » . ويروى أن الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال : « لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

كان عهد الليث عهد الدولة العباسية في نشأتها ، وقد نهضت الدراسات الفقهية لحاجة الدولة إلى قانون شرعى منظم ، وظهر تميز المذهبين: مذهب أهل الحجاز أهل الحديث ، الذين يعتمدون في أحكامهم على السنن والآثار ، ويستكثرون من الروايات والأخبار ، ولا يلجهنون إلى الرأى إلا قليلاً؛ ومذهب أهل العراق أهل الرأى ، الذين كان حظهم من رواية الحديث قليلاً وكان اعتقادهم على الرأى كثيراً. وكان كل من هؤلاء و هوؤلاء يقصد إلى استنباط الأحكام وتدوينها ، تيسيراً وتنظيماً لأمر القضاء وسياسة الدولة .

وقد غاب على أهل الحديث الاهتمام بأن تكون سياسة الناس وأعمالهم موافقة لظواهر النصوص من غير كبير عنایة بأسرار الأحكام ومرامي النصوص .

أما أهل الرأى فشغلهم تفريع المسائل وفرض الفروض ليجدوا لها حلّاً بدقيق النظر ولطف الحيلة .

وجاء الليث بن سعد فجعل همَّه أن يوجه الفقه ووجهه جديدة تخرجه من دائرة التخصص بخدمة النظم الحكومية ، وتخلاصه من تساهل أهل الرأى وتشدد أهل الحديث .

وفي كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله :
« وكان الليث بن سعد كثيراً ما يقول لأصحاب الحديث : تعلموا الحلم قبل العلم » .

وقد رأينا كيف أفتى الليث بن سعد هارون الرشيد في رد طلاقه ، صراعياً في ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعي ظواهر الأحكام .
وفي كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء :

« ... أخبرني يحيى بن عبد الله بن بكير قال : سمعت الليث بن سعد يقول : كفت أسمع بذكر أبي حنيفة وأتمنى أن أراه ، فكنت يوماً في المسجد الحرام فرأيت حلقةً عليها الناس مُتعصِّفين ، فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال : إني رجل من أهل خراسان كثير المال ، وإن لي ابناً ليس بالمحمود وليس لي ولد غيره . فذكر نحوه سوءاً وزاد ، قال الليث : فوالله ما أحببني قوله بأكثر مما أحببني سرعة جوابه » .

والقصة المشار إليها أن الرجل قال يا أبا حنيفة ، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمني وأعزني . قال : ما هو ؟ قال : لي ولد ليس لي غيره ، فإن

زوجته طلق ، وإن سرّيته أعتق ، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة ؟
فقال له للاوقت : اشترا خارية التي يرضها هو لنفسك ثم زوّجها منه فإن
طلق رجعت ملوكتك إليك ، وإن أعتق أعتق ما لا يملك .

وإذا كان الليث قد أعجب بقول أبي حنيفة وبسرعة جوابه فما أظنه كان
يرى أن يحجب هذا الجواب ، ولا أن يسرع ذلك الإسراع .

والمتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيراً مما يتعلق بحسن
السلوك وكمال الخلق ، إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات .
وقد جمع ابن حجر أربعين حديثاً من عوالي الحديث مرويّة عن الليث منها :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى
اثنان دون واحد .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُقيِّمَ أحدكم الرجل
من مجلسه ثم يجلس فيه .

ومنها : أن امرأة وُجِدت في بعض مغارى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مقتولة ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا كلكم راعٍ وكلكم
مسؤول عن رعيته ، فالامير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ،
والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، وامرأة الرجل راعية على

بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . أَلَا فَكُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُمْ مسئول عن رعيته .

ومنها : أن رسول الله صل الله عليه وسلم أمر رجلاً كان يتصدق بالنبل في المسجد أَلَا يمْرِ بها إِلَّا وَهُوَ آخِذٌ بِنَصْوَهَا .

ومنها : أن النبي صل الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب في ركب عمر يحلف بأبيه ، فناداه : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِنَهَا كَمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، فَنَّ كَانَ حَالَفًا فَلَيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلَّا فَلَيَصُمِّتْ .

ومنها : أنَّ رسول الله صل الله عليه وسلم قال : لَا يُنْخَطِبُ أَحَدُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ .

وهذا الذي نهض به الليث من توجيهه الحركة الفقهية إلى الناحية الأخلاقية الروحية ، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً في أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضة الأولى ، ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية .

ومن عجب أن عبد الوهاب الشعراوي المتوفى سنة ٩٧٣ وهو مصرى من قلقشندة بادر الليث ، لم يذكر مواطنه في كتابه الطبقات الكبرى ، وهو قد ذكر أبا حنيفة ومالكاً والشافعى وابن حنبل ، وغيرهم من لم يكونوا أقرب إلى التصوف من الليث .

ولم يقف علم الليث عند حد الفقه والحديث ، بل كان محيطاً بأنواع

ال المعارف المتداولة في ذلك الزمن . وفي كتاب حسن المعاشرة للسيوطى المتوفى

سنة ٩١١ :

« وقال يحيى بن بكر : ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » .

بل هو قد كان فوق ذلك مؤرخاً حجة خصوصاً فيما يتعلق بفتح مصر وتاريخها الإسلامي إلى عهده . بل له روايات تتصل بتاريخ مصر قبل الإسلام كروايتها في منابع النيل التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان ، وهي رواية إن لم تدون لنا حقيقة تاريخية ثابتة فهي تدون أسطورة تمثل صورة التفكير في بعض العصور .

وفي كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضائها لاسكندرى روايات عن الليث كثيرة ، في ولاة مصر وقضائها ، وما جرى من الأحداث فيها منذ فتحها . وفي كتاب معجم البلدان لياقوت روايات عن الليث عديدة في تحقيقات جغرافية ولغوية .

وكل ذلك يدل على سعة اطلاع الليث وتميزه في فنون المعارف . وقد ضاعت معارفه فيها ضاع من آثار الأقدمين إلا ما نجده منشوراً في كتب مختلفة .

واستيفاء البحث في ترجمة الليث يقتضي جمع هذه المنشورات وتحقيقها وترتيبها . ونرجو أن ينشط لهذا البحث النافع بعض أهل الجد من شبابنا .

* * *

لم يقول الليث شيئاً من أمر الحكم ، وقد عف عن الولاية وعف عن القضاء . وفي كتاب حسن المعاشرة :

«قال ابن كثير : وقد حكى بعضهم أنه ولـى القضاء بمصر» ، وهو غريب . على أن الليث بن سعد كان من جلال القدر ورفعة المزيلة بحيث يلـجأ إلى رأيه ولاة مصر وقضائهما .

قال الكلندي في تاريخ القضاة :

سمعت بكر بن منصور يقول : قدم علينا كتاب أمير المؤمنين مروان في حوثرة ابن سهيل : أن قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدويًا فصيح اللسان ، من حاله ومن حاله كذا ، فاجعوا له رجلاً فيه مثل فضاله ، يسدده في القضاة ويصوّبه في النظر ، ويـسـدـدـهـ فيـ كـذـاـ وـكـذـاـ . قال بكر بن منصور : فأجمع الناس كلهم يومئذ على الليث بن سعد ، وفيهم معلمـاهـ يـزـيدـ بنـ أـبـيـ حـبـيبـ وـعـمـرـ وـبـنـ الـحـارـثـ » .

وفي حسن المعاشرة :

«وقال الذهبي في العبر : كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث

وكان إذا رأبه من أحد شئء كاتب فيه فيعزل؟ وقد أراده المنصور أن يوليه إمرة مصر فامتنع ». .

وكانت مشورة الليث ذات أثر ظاهر في سير الحكم وفي تنظيمه .
ذكر ابن إياس في تاريخ مصر : في حوادث سنة ٩٢٨ :

« وقيل إن الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه هو الذي دون ديوان الأحباس في أيامه وأفرد للرزق الأحباسية ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقياً من بعد الإمام الليث إلى الآت ، حتى جاء فخر الدين بن عوض فنقض ذلك الأمر الذي كان على جهات البر والصدقات وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة ، وأبطل ما كان صنعته الليث ابن سعد رضي الله عنه » ج ٣ ص ٣٠٤

وفي كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضائها للكندي عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى بن موسى العباسى الأولى بمصر في سنة إحدى وسبعين ومائة :

« ثم أذن موسى بن عيسى للنصارى في بناء الكنائس التي هدمها على بن سليمان ، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن طبيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد . واحتتجوا أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين .

* * *

بقي جانب من جواب الليث بن سعد لم نعرض له وما أحسب أحداً من المترجمين لليث أغفله ، ذلك هو أمر غناه ، فقد كان الليث موفور الغنى وكان سخيناً جواداً ، وكان زاهداً ورعاً . واختلفوا في تقدير ثروته ، فقائل ان الليث بن سعد كان يستغل خمسة آلاف دينار في كل سنة ، وقائل أكثر من ذلك ، حتى بلغ بها بعضهم ثمانين ألف دينار ، بل قال بعضهم إن دخل الليث بن سعد كان مائة ألف دينار في كل عام ، وكلهم متفقون على أن الليث لم تجب عليه قط زكاة ، بل يقول بعضهم: كانت تأتي عليه السنة وعلىه دين . كان منفقاً يهب الألوف . وأعطى ابن هبيرة ألف دينار ، وأعطى مالك بن أنس ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمار ألف دينار وجاريها تساوي ثلاثة دينار .

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت : يا أبا الحارث إن ابناً لي عليل ، واحتى عسلاً . فقال : يا غلام ، اعطها مرطاً من عسل . والمرط عشرون ومائة رطل .

كانت للبيث ضياع في الجيزة وفي غير الجيزة ، وكانت له دور في الفسطاط وفي قلقشنة ، وكانت له فلك تجربى في البحر بأمره . وفي تاريخ بغداد : « سمعنا أبا رجاء قتيبة يقول : قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية

وكان معه ثلاثة سفائن: سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيفاه.

وفي كتاب الخطط لعلى مبارك باشا^(١):

« وكانت له قرية بمصر يقال لها الفرما ، مهما حل إليه من خراجها يجعله صرراً ويجلس على باب داره ويعطى من مرّ به من المحتاجين صرة صرة حتى لا يدع من ذلك إلا اليسير .

وحل إلى بغداد ليفتى الرشيد في زوجته زبيدة ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، فردها وقال : ادفعها لمن هو أحوج مني . وقال يحيى بن بكر : كانوا يزدحون على باب الليث فيتصدق عليهم فلا يترك أحداً . وتصدق وأنا معه على سبعين بيتكاً من الأرامل ، ثم بعث غلاماً له بدرهم فاشترى به خبزاً وزيناً ثم رجعت إلى بابه فرأيت عنده أربعين ضيقاً فأنخرج عليهم اللحم والحلوى ، فلما أصبح قلت لغلامه : بالله عليك لمن الزيت وانظير ؟ قال : لسيدي . فتعجبت من كونه يطعم أضيفاه اللحم والحلوى وهو يأكل الخبز والزيت .

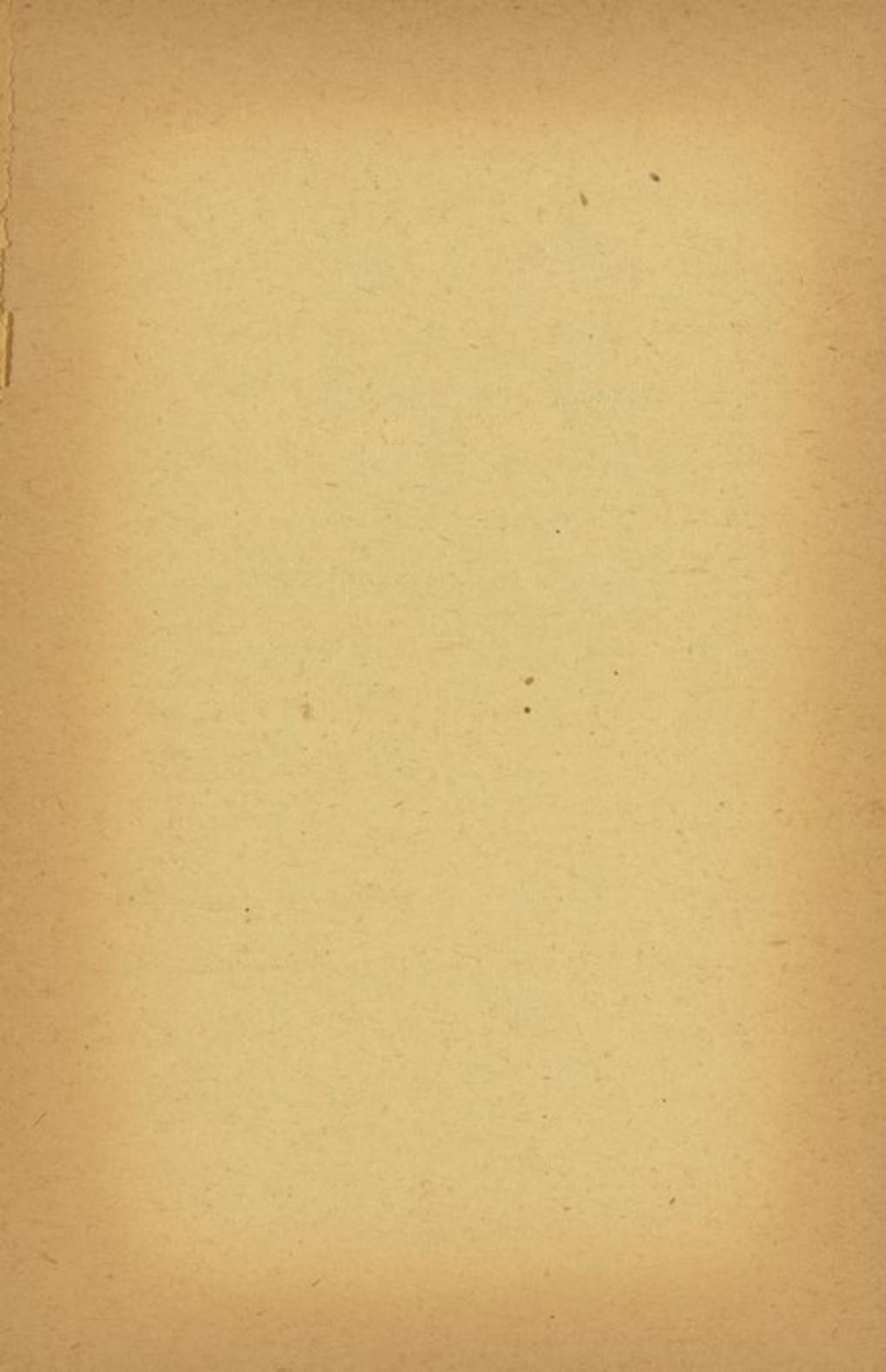
ومن مناقبه أن رجالاً من أهل مصر صودر في أيامه ، ونودى على داره فبلغت أربعمائة درهم ، فاشتراها الليث ، وبعث يونس بن عبد الأعلى الصدفي يأخذ المفاتيح ، فوجد في الدار أيتاماً وعائلاً ، فقالوا : بالله عليك اتركتنا إلى

(١) انظر (قلتشندة) في الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٨ .

الليل حتى ننظر قريبة نذهب إليها . فجاء إلى الليث وأخبره بالقصة فيكى
وقال له : عُد إليهم وقل لهم : الدار لكم ، ولكم ما يقوم بكم في كل يوم «
وكما كان الليث بن سعد إماماً في العلماء وعظيماً في الكرماء ، فقد كان
ابنه شعيب بن الليث عالماً كريماً وهو مدفون إلى جواره . وفي خطط على
مبارك باشا : « قال ابن أبي الدنيا : حج شعيب بن الليث سنة فتصدق بمال
عظيم ، فر عليه رجل من العلماء فسأل عنه فقيل له هذا العالم الكريم ابن
الكرم . ولما دخل دمشق جاءه رجل وقال له : إن عبد أبيك معى ، لأبيك
تجارة ألف دينار وأنا الآن في الرق ، فخذ مال أبيك واعتقنى إن شئت .
فأعتقه وأعطيه المال . قال الخطابي : فلا أدرى أيهما أحسن : العبد في إفراره
بالمال والرق ، أم السيد حيث أعتقه وأعطيه المال » .

* * *

هذه نظرة عجلى في حياة عظيمة لإمام من أسلافنا عظيم . وأرجو أن
أكون وفقت لتوحيد الناشئين إلى درس سيرة من أكرم السير سيرة الرجل
الذى ذكره ابن حبان في الثقات فقال : « كان من سادات أهل زمانه ،
فتهاً وورعاً ، وعلمًا وفضلاً وسخاءً » .



اشیخ محمد عَبْدُه



الشيخ محمد عبده

وحياته في الإصلاح الديني^(١)

- ١ -

الدور الأول

قد يكون خير ما نحوي به أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده في يوم تذكاري
وفاته^(٢) هو أن ندرس جانبًا من جوانب حياته العظيمة .
ونختار وجهته في الإصلاح الديني ؛ لأنها مظهر شخصيته ، ومركز
الدائرة في تفكيره وعمله .
كان الشيخ محمد عبده مصلحًا يسعى للتوفيق بين العقل والشرع ، وقد
قرر ذلك من رثوه ومن ترجموا حياته :

(١) نشرت هذه المقالات الحس في جريدة السياسة في ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ (١١ يوليه سنة ١٩٢٣) إلى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤١ (١٧ يوليه سنة ١٩٢٣) توفى الأستاذ برمي الإسكندرية في الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٨ جادي الأولى
سنة ١٣٣٣ هـ (١١ يوليه سنة ١٩٠٥ م) .

قال إسماعيل صبرى :

ووقفت بين الشرع والعقل بعد ما قد اعتقد الإلган أن لا تلقيا
وقال حفني ناصف :

ويذكُر العلماء أن لا يُغمضوا
عما اقتضاه زمانهم أبصارا
ويظل بالإصلاح مُغرساً ، كلما وجد السبيل إلى صلاح سارا

وقال حافظ إبراهيم :

ووقفت بين الدين والعلم والحجاج
 فأطلعت نوراً من ثلاثة جهات
 وقالت باحثة البدية :

والعلم والدين للجنسين مُطلب
 فليس يختص جنسُ منها بهما
 فنحن في الحزن شاطرنا الرجال كـ

وقال جورجى زيدان في ترجمة الشيخ ، في الجزء الأول من كتاب
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » :-

« فلما صرخ الشيخ محمد عبده بحاجة الإسلام إلى الإصلاح انقسم
المسلمون إلى فئتين ، فئة ترى بقاء القديم على قدمه ، وهم حزب المحافظين ،
وفئة ترى حل القيود القديمة وإطلاق حرية الفكر ، والرجوع إلى الصحيح
من قواعد الدين ، ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الدخيلة - وكان رحمة الله
زعيم هذه الفئة ينأى عن مبادئها ببساطه وقلمه ، وبكل جارحة من جوارحه .

وكان مساعيه ترمي إلى غرضين رئيسيين : الأول تنقية الدين الإسلامي من الشوائب التي طرأت عليه ، والثاني تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ؛ ليفسقونوا من ثمار مدنية علمياً وصناعياً وتجارياً وسياسياً » .

ونحن نرجع إلى الأستاذ نفسه في بيان وجهته في الإصلاح الديني فنلأ عن المجلد الثامن من المنار :

« وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرتين عظيمتين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه وتقلّل من غلطه وخطبه ؛ لتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني . وأنه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

وكل هذا أعدده أمراً واحداً ، وقد خالفت فيه رأى الفئتين العظيمتين ، اللتين يتركب منها جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم » .

وإذا تتبعنا دعوة الأستاذ إلى الإصلاح الديني منذ ظهورها في آثاره المكتوبة نجد بدايتها في الفصول التي نشرها في جريدة الأهرام سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م بعنوان : (العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية) .

في ذلك العهد كان التعليم النظامي انتشر في وادي النيل ولفت الناس
حتى أهل الأزهر إلى العلوم الحديثة .

ويبين لنا منزلة هذه العلوم يومئذ في نظر الأزهر بين ما نسخه لنا بعض
أصحابنا من فتاوى المرحوم الشيخ الأنبا المخطوطة المحفوظة بمكتبه ، ونصه :
« سئل حفظه الله تعالى بما صورته : ما قولكم رضي الله عنكم - هل
يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية ، مثل الهندسة والحساب والهندسة والطبيعيات
وتركيب الأجزاء المعتبر عنه بالكمياء ، وغيرها من سائر المعارف ... الخ ؟ »
ولا تزيد أن نطيل بذكر هذه الفتوى المؤرخة غرة ذي الحجة سنة
١٣٠٥ هـ فبحسبنا أن نعرف أن تعلم الرياضيات والطبيعيات كان محتاجاً في
ذلك الزمن إلى رخصة من شيخ الإسلام .

أما الشيخ محمد عبده فقد كان اتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني منذ
سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨١٨ م ، ولم يكن نظر السيد إلى هذه العلوم كنظرك
الأزهر بين ، لذلك كان يدرس مدة مقامه بمصر المنطق والفلسفة والهندسة في
منزله لطلاب الأزهر ، دون أن يفكر في أن الأمر يحتاج إلى استفتاء
وإفتاء .

وفي العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة « كاوه » الفارسية التي
تنشر في برلين ، أن السيد جمال الدين ورد على بوشير في سنة ١٣٠٣ ونزل

في منزل الحاج أحد خان ، وفِقَام ثلاثة أشهر عن فيها بتعليم ابنه محمد على خان المقلب بسديد السلطنة . وكان السيد يُشير على تلميذه بقراءة كتب في الجغرافيا وعلم الهيئة ، وسيرة نابليون ، وجُلستان لاسعدى ، وكتاب كليلة ودمنة ، وجرائم مصر .

لا جرم كان من أثر التصادم في نفس الشيخ محمد عبده بين ما أحدهما دروس جمال الدين وأثر الوسط الأزهري ، أن كتب بحماسة تنوع بأسلوبه الفض ، مقال الأهرام الذي يقول فيه :

فمن أعجب ما رأينا في هذه الأيام ، أن بعض طلبة العلم الكرام . قد تحرّك إلى المعالي همتـه ، فأخذـ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية ... فلما سمع بذلك بعض أحبائه وأصحابـه وأقربـاته ... اهتزـ واضطربـ ، وعجبـ كلـ العجبـ ، وأخذـ الحزنـ على ذلكـ الطالـب ما شاء اللهـ أنـ يأخذـه ، وأوسعـ لذلكـ الطالـب النصـيحةـ . ويالـها منـ فـضـيـحةـ أـى فـضـيـحةـ ! قـائـلاـ :
كيف تدرسـ عـلومـ الضـلالـاتـ حتىـ تـقعـ فيـ الشـبهـاتـ ... ولـيمـ شـعـرىـ إذاـ كانـ هـذـاـ حـالـنـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ عـلـومـ قدـ أـرـضـعـتـ ثـدـيـ الإـسـلامـ وـغـذـيـتـ بـلـبـانـهـ وـتـرـبـتـ فـيـ حـجـرـهـ .. فـاـ حـالـنـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ عـلـومـ جـدـيـدةـ مـفـيـدةـ هـىـ مـنـ لـواـزـمـ حـيـاتـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـأـزـمـانـ .. فـعـلـيـنـاـ أـنـ نـنـظـرـ فـيـ أـحـوالـ جـيـرانـنـاـ مـنـ الـمـالـكـ وـالـدـولـ . وـهـاـ نـحـنـ بـعـدـ النـاظـرـ لـاـ نـجـدـ سـبـبـاـ لـتـرـقـيـهـمـ فـيـ الثـرـوـةـ وـالـقـوـةـ إـلـاـ اـرـتـقاءـ الـمـعـارـفـ

والعلوم فيما بينهم ... فإذاً أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا » .

وبعد هذا الفصل المنشور في جريدة الأهرام لعامها الأول نجد للشيخ محمد عبده في الجريدة الرسمية أيام توليه تحريرها سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م مقالاً في حكم الشريعة في تعدد الزوجات ، جاء فيه :

« أقْبَعَ الْوَعِيدُ الشَّرِيعِيُّ وَذَلِكَ الْإِلَزَامُ الدَّقِيقُ الْحَتَّمِيُّ ، الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا وَلَا تَحْوِيلًا ، يَحْجُزُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْزَوْجَاتِ عَنْدَ تَوْهِمِ الْقَدْرَةِ عَلَى الْعَدْلِ فَضَالًا عَنْ تَحْقِيقِهِ ؟ فَكَيْفَ يَسْوَغُ لَنَا الْجَمْعَ بَيْنَ نِسَوَةٍ لَا يَحْمِلُنَا عَلَى جَمْعِهِنَّ إِلَّا قَضَاءً شَهْوَةً فَانِيَّةً ، وَاسْتِحْصَالَ لَذَّةً وَقْتِيَّةً ، غَيْرَ مُبَالِيْنَ بِمَا يَنْشأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَمُخَالَفَةِ الشَّرِيفِ ؟ ! » .

ونجد أيضاً للأستاذ في الجريدة الرسمية كلاماً في البدع كالآذكار المصحوبة بالطبلول، والاجتماعات المعروفة بالحضرات، وكبدعة الدوسة التي يقول فيها : « وهي أن ينطرب الناس على الأرض مصطهدين أحدهم إلى جانب الآخر ثم يعلو أحد المشayخ على ظهورهم بمchan يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي إلى آخرهم ... »

خصوصاً وأن الدوسة وأمثالها من أنواع البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الفراء ، حتى يلتزم أحد موافقتها ولو بطرق

التشبيه على بعد . وأما دعوى أنها من الكرامات فهى باطلة عند أهل السنة والجماعة ؛ فإنهم نصوا في كتب التوحيد على أنَّ من شروط الكرامة أن لا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته . فإن صارت كذلك كأكمل النوار ، وضرب السلاح ، والدوسة ونحوها ، التي يتعاطاها كل من يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي ، أو يقول مشيخة السعدية آياتاً كان ، فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الحيل المذمومة » .
هذه هي بأكورة الإصلاح الديني الذي توجهت له همة الأستاذ في بداية أمره ، وهو نوع من الإصلاح العملي ، مرجعه إلى نصر العلوم الحديثة على خصومها من أهل الدين ، وتهذيب نظام العائلة بوضع قيود لتعدد الزوجات ، ومحاربة البدع التي ليست إلا صوراً دينية شوهاء .
وتجدر بالعهد الذي كان الخديوي إسماعيل يدفع فيه الأمة دفعاً في سبيل المدنية الحديثة القائمة على العلم والجمال أن يلهم نفساً صالحة كنفس الشيخ عبده السعى في تذليل ما يقوم بين يدى العلم من العقبات ، وإزالة ما يشوه حياتنا من البدع المنسوبة إلى الدين .

الدور الثاني

حدثت الثورة العرابية ونفى الأستاذ الشيخ محمد عبده من مصر، ثم التقى بالسيد جمال الدين الأفغاني في باريس ليصدران جريدة العروة الوثقى معاً في

سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م

وكان حركة الإصلاح التي يحاوّلها جمال الدين مستعيناً بـ تلميذه ترمي إلى تخلص دول الإسلام من النفوذ الأوروبي مادياً وسياسياً ، والعمل على رقيها الداخلي المستقل بإيجاد النظم الدستورية الحرة فيها ثم جمع شتااتها بهمالة مستقلة متحدة تحت لواء خليفة واحد ، مكونة لدولة قوية قادرة على صد العداون الخارجي .

قال صاحب مجلة المزار في ترجمته للشيخ محمد عبده في المجلد الثامن : « حدثني أنه قال للسيد في أوربا : إن هذه السياسة لا يأتى منها خير لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مصالحة لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط .

فخير لنا أن نذهب معاً إلى مجهل من مجاهل الأرض لسلطان لسياسة

فيه ، ونحاول تربية أولاده على ما نحب ، فإذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون أنفسهم خدمة الأمة لا يصدّهم عن ذلك الجثوم في وطن ، والإخلاص إلى الأهل والسكن ، بل يكون همهم الضرب في الأرض لتربية مثلهم على ما ربوا عليه ، فلا يبعد أن يربى الواحد منهم عشرة ، فيكون لنا في زمان قريب مائة رجل يعملون للإسلام ، والرجال هم الذين يعملون كل شيء .
فقال السيد : إنما أنت مثبط ، قد شرعنا في عمل فلابد من المفى فيه حتى يتم أو نعجز » .

ويدل هذا على أن الشيخ محمد عبده لم يكن مملوء النفس بالأمل في الإصلاح السياسي القائم على تحريك العواطف الدينية ، هذا النوع من الإصلاح الذي كان ملء جوانح السيد جمال الدين ، ما يسعى له بتأليف الجمعيات السرية في بلاد الإسلام المختلفة ، و بإصدار جريدة وبث أعلانه .
على أن فكرة أستاذنا في الإصلاح الديني التي كانت قبل عهد العروبة الوثقى ، محلية تلهمها حاجات البلاد المصرية ، استحال إلى فكرة أكبر وأشمل بحكم النظر في شؤون المسلمين في الأقطار المختلفة ، و تعرّف أسباب انحطاطهم ، والإمام بجملة عقائدهم وآثارها في أعمالهم .
كل ذلك مع ما يمدّه من فطرة شيخنا وتربيته الدينية وجّهه إلى دعوة

الإصلاح الديني بمعناها الكامل ، التي بلغت شأوها منذ دخول الأزهر وتقاد الإفتاء عام ١٨٩٩ م ، فأصبح للناس إماماً .

ويقول الأستاذ فيما كتبه ردًا على هانوتو :

« مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال : إن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقة ، دينية ودنيوية ، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة . . . وهذه سبيل لمزيد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عقده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً . وإذا كان الدين كافلاً بهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهلها من الثقة به ما يتناثر ، وهو حاضر لديهم ، والعناية في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به . فلم العدول عنه إلى غيره ؟ ». «

فالشيخ يعتقد أن المسلمين ابتدعوا في عقائد دينهم ما ليس منها وأخطئوا في فهم النصوص الدينية ، فكان لا بد لدعوتهم الإصلاحية من تمحیص

العوائد وتفهيمهم النصوص على وجهها . لذلك عنى بمدارسة التوحيد ، والتأليف فيه ، واشتعل بتفسير القرآن الكريم درساً وكتابة .

يرى الأستاذ أن رد الناس إلى قواعد الدين وأحكامه على ما كان في بدايته ميّحاصاً مما عرض عليه هو خير ما يوجههم إلى منتهى الكمال الإنساني ويسمو بهم عن ضروب الشحناء والمنازعات ، ويمحو بينهم أسباب الفرقة والخلاف .

يقول الأستاذ في كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » : « الدين دين الله ، وهو دين واحد في الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، أما روحه وحقيقة ما طُلب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين ، فهو لا يتغير ، إيمان بالله وحده وإخلاص له في العبادة ، ومساعدة الناس بعضهم بعضاً في الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا » .

يقول الأستاذ في كتاب كتبه إلى قس إنكابري خطب في لندرة مبيناً محسن الإسلام :

« ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان - الكامل ، فتنهزم له ظلمات الغفلة ، فتصبح الملائكة العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد ، وتعانقتا معاونقة الألفة فتعمد عند ذلك سيف الحرب التي طالما ازمعت لها أرواح الملائكة ... »

وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبًا متوافقة ، وصحفًا
مقاصدة ، يدرسها أبناء الملائكة ويوقرها أرباب الدينين ، فيتم نور الله ويظهر
دینه الحق على الدين كله » .

كان الشيخ مؤمناً بنجاح دعوته إيماناً لا يزعزعه ريب ، فهو يقول في
كتاب الإسلام والنصرانية :

« قد وعد الله بأن يتم نوره ويظهره على الدين كله فسار في سبيل التام
والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به
إلى ما يرون ونرى ، ولن ينفعى العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين
بيد العلم ويتعاونوا معه على تقويم العقل والوجدان . . . ولا بد أن يتنهى أمر
العالم إلى تأكيد العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . . . وعند ذلك
يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون ، وتبعهم الجامدون القاطعون .
وليس يبنك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ،
وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج » .

ومن أجل ثقة الأستاذ بدعوته وإيمانه بأنها حق يؤيده البرهان ، وأنها
سبب سعادة وصلاح للبشر لا شفاق وخصام . كان ينفعى على المسلمين ولهم
بالتكفير والتفسيق ، ويرى ذلك من وهن عقائدهم وضعف المزاج الديني
فيهم ، ويبرئ الدين نفسه من تلك الخلة .

يقول في كتاب الإسلام والنصرانية :

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين ، وعرف من
قواعد دينهم ، وهو : إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه
ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على
الكفر . فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟
وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحق بحيث يقول قوله لا يحتمل الإيمان
من وجه واحد من مائة وجه ؟ ...

لاأكاد أخطئ القاريء إذا زعم أن المسلم استفاد اسم زندقة وترندق
ومترندق وزنديق ، من فضل مما عالمه جيرانه إذا كانوا يقولون هرتفقة وتهرتقا
وهو هرتفقا ، أو ما يماثل ذلك ؟ أو زعم أن قد فاشت في المسلمين سرعة
التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة ... متى أولع المسلمين
بالتفكير والتفسيق ، ورمي زيد بأنه مبتدع ، وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا في ما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ
فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتنة أهل البصيرة
من أهله ... وتولى شؤون المسلمين جهالهم وقام بإرشادهم في الأغاب ضلالهم .
في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار

فيه ، وسهل على كلِّ منهم جعله بدينه أن يرمي الآخر بالمرور منه لأدنى سبب .

وكلما زادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلواً في الباطل ، ودخل العلم والفكر والنظر (وهي من لوازم الدين الإسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب ما كان واجباً في الدين محظوراً فيه » .

ويقول الأستاذ في تفسير سورة العصر :

« ومن الناس من إذا سأله في أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله : لا تقل ذلك فتکفر أو تعزل أو ما أشبه ذلك ، وهو سلاح يتخذه المرتابون في عقائدهم ترساً يدفعون به ما يخشون من الشبهة التي ترازو
عقائدهم ، ولكن هذا الدفاع يدلُّ على ارتياح صاحبه في عقيدته قبل الدفاع فإنَّ صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع ، فإنَّ وجد عند مخاطبه شبهةً
أمكنته أن يزيلها من نفسه . وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هي
التي أغفلت دون المسلمين أبواب العلم ؛ فإنه كلاماً لاح نور إلهي في يقين الطالب
يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزاز والفلسفة ما يُحمد ذلك النور فيه » .

- ٣ -

الدور الثاني أيضاً

تنظم دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح الديني - كما تبين مما سردناه آنفًا - أموراً ثلاثة :

١ - تحرير الفكر من قيد التقليد .

٢ - اعتبار الدين من موازين العقل البشري ، وعدّه صديقاً للعلم .

٣ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى يتابعيها الأولى .

ونحن نتناولها بالبحث على هذا الترتيب :

١ - تحرير الفكر من قيد التقليد

يقول الأستاذ في كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » :

« فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ... بلغ هذا الأصل بال المسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج » .

يريد الأستاذ بالإيمان الصحيح اليقين ، وإليك ما ي قوله في اليقين نقاً
من تفسيره سورة « العصر » :

« وليس الإيمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقاداً وإن كان بمحض
التقليد لا عمل لعقل ولا لوجدان فيه . . . وإنما المراد منه ذلك التصديق
المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آمن به . . .

أما هذا الإيمان الذي يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فینشأ ابن المسلم
لا يفهم معنى لما يعتقد أو يقول أبوه ، وإنما ينطق كا ينطق ، وتأخذه الحمية
لما يراه يحْمِي له ، لا يفهم لذلك معنى ، ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كا ينشأ
ابن النصراني أو ابن اليهودي أو ابن المحسوس على مثل ذلك ، فهو بما لا يعتد
الله به » .

ويزيده بياناً أيضاً قول الشیخ في رسالة التوحید :

« أنْحَى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر . . .
ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسِمِّياً لعقول
على عقول ، ولا لأذهان على أذهان . وإنما السابق واللاحق في التمييز وال分け
سيان . . . بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيان طالما حرم
منهما ، وهما : استقلال الإرادة ، واستقلال الرأي والتفكير ، وبهما كملت
إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم النطرة التي
فطر عليها » .

يقرر الأستاذ أن لا نجاة إلا بالإيمان المبني على النظر وقيام الدليل ،
ويقول في تفسير سورة العصر : « فإنه لا يقين مع التحرج من النظر ،
وإنما يكون اليقين باطلاق النظر في الآخرة كوان طولها وعرضها ، حتى يصل إلى
الغاية التي يطلها بدون تقيد ، كما هدانا الله إلى ذلك في كتابه ؛ فإنه يخاطب
الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حدّ ». .

ومعنى هذه الحرية التي يجعلها الأستاذ للنظر ، يتبيّن على وجه واضح
مما سند كره .

قال في رسالة التوحيد : « وتقرّر بين المسلمين كافة – إلا من لا ثقة بعقله
ولا بدينه – أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل ،
كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على إرسال الرسل ... »

قال في حاشيته على شرح الدوافع على العقائد العضدية ، التي كتبها سنة
١٢٩٣هـ ولكنها لم تطبع إلا في آخر حياته سنة ١٣٢٢هـ : « والحق الذي
يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين
الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات ،
ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم ». .

وفي رسالة التوحيد :

« وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه ، والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقفى عليه ذلك بقبول ما هو من باب الحال المؤدى إلى مثل الجمجمة بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد ؛ فإن ذلك مما تمتازه النبوات عن آن تأتى به . فإن جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيما وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً بقيمة ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه ، وفي التفويض إلى الله في علمه » .

والمفهوم من هذا القول أن على العقل أن يذعن لما ثبت في الدين وإن لم يفهمه . لكننا نجد في رسالة التوحيد نفسها قولًا آخر هو :

« من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول ، وذهب بعقده إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت ، وثواب وعقاب ، بحيث لا ينقض تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقض شيئاً من بناء الشريعة في التكاليف ، كان مؤمناً حقاً ... والأصل في ذلك أن الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر ، بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل » .

وهذا القول الثاني وإن كان أدنى إلى حرية النظر التي يهتف بذكرها الأستاذ كثيراً فإن وجه التفريق فيه بين الشرائع العملية وأخبار الغيب ليس بيّن .

ب - اعتبار الدين من موازين العقل وعده صديقاً للعلم يرى الأستاذ أن وظيفة الدين غير وظيفة العلم ، فلا موضع لتصادمهما وها حاجتان من حاجات البشر قد لا تُغْنِي إحداهما عن الأخرى .
وهذا قوله في رسالة التوحيد :

ولكنها - أى الحاجة إلى الرسل - حاجة روحية ، وكل ما لا منسَّ
الحسَّ منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم
ملائكتها ، أو إيداعها ما فيه سعادتها في الخياتين .

أما تفصيل طرق المعيشة، واللذق في وجوه الـكسب ، وتطاول شهوات
العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل
للرسالات فيه إلا من وجہ العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ...
وإنما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه
سعادة الأمم بدون مرشد إلهي ، كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات
بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً ،

كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات » .

ولا يرى الأستاذ أن من عمل الدين تمحیص الحقائق العلمية ، وال تعرض لما هو من أبحاث الفنون . وقد بين ذلك في قوله في رسالة التوحيد : « ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس ما جاءوا به تعلم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استقرين في طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم ؛ فإن ذلك كله من وسائل الالكتب وتحصيل طرق الراحة ، هدى إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك ... أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا من أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ، فإما يقصد النظر إلى ما فيه من الدلالات على حكمه مبدعه أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه » .

وبذلك يتميز بين وظيفة الدين ووظيفة العلم ، لم يترك الأستاذ سبيلاً للعداوة بينهما ، ولا نقص من قيمة واحدٍ منها ، ثم لم يكتف بهذا ، بل زاد من مظاهر عطفه على العلم ، فقال في رسالة التوحيد أيضاً : وعلى كل حال لا يجوز

أن يُقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات المكينة بقدر الإمكان.

بل يجب أن يكون الدين، باعتباره على طلب العِرْفَان ، مطالبًا له باحترام البرهان ، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف في سلامه الاعتقاد عند الحدّ ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جنayah لا يغفر لها رب الدين».

— ٤ —

وصل بنا البحث إلى الغرض الثالث من أغراض الإصلاح الإسلامي التي توخاها المصلح العظيم الشیخ محمد عبده ، وهو من أجلها خطراً وأكبرها أثراً؛ لاتصاله بأسس الدين المقدسة وطريقة فهمها ، ولظهور مذاهب الشیخ ومنازعه في هذا الباب بأوضح من ظهورها في سائر أبواب الإصلاح الديني.

ج — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف

والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى

الدين الإسلامي في مذهب الشیخ محمد عبده على ما ذكره في رسالة التوحيد : — « هو الدين الذي جاء به محمد صلی الله علیه وسلم ، وعَقَله من وعاه عنه من حبابته ومن عاصره ، وجرى العمل عليه حينما من الزمن ينفهم بلا خلاف ولا اعتراض في التأویل ، ولا ميل مع الشیع » .

فالأستاذ يرى أن الإسلام هو المبادئ التي جاء بها نبيه وثبتت ورودها عنه على سذاجتها، بل يرى الأستاذ ذلك في جميع الأديان، فيقول في كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية :

« عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه ... فإذا أريد أن يحتاج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فيؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين، ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه ». ونبأع الدين الإسلامي في سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه مبينة في قول الشيخ في رسالة التوحيد :

« بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام — بالدليل القطع على ما يتنا — وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلاريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به . ونعني بما جاء به ، ما صرّح به في الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس ... »

ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صحيح في الخبر ... أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روایتها ... والأصل في جميع ذلك أن من أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم

حدَثَ به أو قررَه فقد طعن في صدق الرسالة ، وكذبَ بها . ويلحقُ به من أهمل في العلم بما تواترَ وعلمَ أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل » .

الكتاب العزيز وقليل من السنة العملية هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يرد إليه الدين الإسلامي في مذهب أستاذنا . ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلاً فقد صرَحَ الشيخ في تفسير سورة الفاتحة : « انه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين » .

لاغرِيَّ مع هذا أن تتجوَّه عزيمة الأستاذ في آخريات حياته إلى العناية بِتَفْسِيرِ القرآن عنابة تَكاد تستغرق كل مجهوده في الإصلاح الديني .

قال جورجى زيدان في ترجمته للأستاذ في كتاب « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » :

« وأما تنقية الدين الإسلامي من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها أنه أطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ، ولم يتقييد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التي يحرم الأئمة تبديل شيء منها .

فرأى أن يحمل نفسه من هذه القيود ، ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر ، فيجعل أقواله وآرائه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح اللبني على المشاهدة والاختبار ، ولنوايس العمران ، على ما بلغ إليه هذا العلم

إلى الآن من مطابقته لأحكام العقل وأصول الدين ، كما فعل النصارى في تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد ، وهو أوعر مسلكاً في الإسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه .

والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم ، فيتعلقون على تفسيره أهمية كبرى : لأنّه مرجع الفقه وغيره من الأحكام الشرعية والسياسية » .

يدعوا الشيخ محمد عبده جمّيع الناس إلى فهم القرآن ، وأخذ دينهم منه ، فيقول في مقدمة التفسير المطبوعة مع تفسير سورة الفاتحة :

« خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ، ولم يوجّه الخطاب إليهم بخصوصية في أشخاصهم ، بل لأنّهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن هدایته .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا إِيَّاهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ . فهل يعقل أنه يرضي عناً بأن لا نفهم قوله هذا ، ونكتفي بقول ناظرٍ نظر فيه لم يأتنا من الله وحْيٌ بوجوب اتّباعه لا جملة ولا تفصيلاً ؟ كلا ! إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته ، لا فرق بين عالم وجاهل » . ويقول في هذه المقدمة أيضاً :

« ومن الممكن أن يتناول كل واحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر ؛ فإن الله تعالى أنزله هدایتنا ، وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه » .

ويشتد الأستاذ في الرد على من يريدون الحجر على العقول أن تنظر
في القرآن ، لتسقى منه دينها ، فاثلاً في تفسير الفاتحة :

« ويُعَكِّنُ أَنْ يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ : لِحَاجَةٍ إِلَى التَّفْسِيرِ وَالنَّظَرِ
فِي الْقُرْآنِ ؛ لَأَنَّ الْأَمَّةَ السَّابِقَيْنَ نَظَرُوا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ وَاسْتَبَطُوا الْأَحْكَامَ
مِنْهَا ، فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَنْظُرَ فِي كِتَبِهِمْ وَنَسْتَغْفِرَ لَهُمْ . وَهَكُذَا زَعْمُ بَعْضِهِمْ .
وَلَوْ صَحَّ هَذَا الزَّعْمُ لَكَانَ طَلَبُ التَّفْسِيرِ عَبْثًا يُضَيِّعُ بِهِ الْوَقْتَ سُدِّيٌّ . وَهُوَ عَلَى
مَا فِيهِ مِنْ تَعْظِيمٍ شَانٍ لِلْفَقِهِ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الْأَمَّةِ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
إِلَى آخِرِ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَا أَدْرِي كَيْفَ يَخْطُرُ هَذَا عَلَى بَالِ مُسْلِمٍ؟ » .

يعترف الأستاذ بأن الكلام في التفسير أصبح غير سهل ، ولكنه يقرر
أن نزول الكتاب هدى ونوراً لا يتحقق إلا بفهمه والاهتداء بهديه . وهذا
قوله في تفسير سورة الفاتحة :

« التَّكَلُّمُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ ، وَرَبِّما كَانَ مِنْ أَصْعَبِ
الْأَمْورِ . وَمَا كُلُّ مَا صَعْبٌ يُتَرَكُ . وَلَذِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْتَنَعَ النَّاسُ عَنْ طَلَبِهِ
وَوِجْهِهِ الصَّعُوبَةِ كَثِيرَةٌ . »

ولكن الله تعالى خفف علينا بأن أمرنا بالفهم والتعقل لا لـكلام ؛ لأنَّه
إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى ، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون
كذلك إلَّا إِذَا كَانُوا يَفْهَمُونَهُ » .

أما وجهة الشيخ محمد عبده في ما تناوله من تفسير القرآن فقد يلخصها في
مقدمة التفسير :

« والتفسير الذي نطلب به هو فهم القرآن من حيث هو دين يرشد الناس
إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ؛ فإن هذا هو المقصود
الأعلى منه ، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحقیصه » .

وجهة الطرافة في تفسير القرآن هي حسن الطريقة في البحث ، واطف
التصویر لمعانى القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وإدرا كها وحاجاتها .
والشيخ في كلا الأمرين متاثر بمناهج الفكر الحديث . ونسوق لذلك أمثلة
بالمقدار الذي يتسع له المقام ، نجعلها على قسمين :

١ — ما هو طریف بأسلوبه في البحث

٢ — ما هو طریف بمنازعه في الفهم

ونأتي بهما مرتبين هذا الترتيب ونجعلهما في ختام بحثنا فيما أخذنا أنفسنا
به من معالجة هذا الموضوع .

— ٥ —

الأستاذ الإمام طریف في طریقته في التفسیر . وهو طریف بأسلوبه
في البحث ، وبنازعه في الفهم . وإليك أمثلة من ذلك :

١ — أمثلة ما هو طریف بأسلوبه في البحث .

قال الأستاذ في تفسير سورة العصر ، عند قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصُوا
بِالْحَقِّ وَتَوَاصُوا بِالصَّرْد ﴾ :

« التواصي أن يوصى كل من الشخصين صاحبه بشيء ، والحق ما يقابل الباطل ، وهو يكاد يكون معروفاً المعنى عند كل الناس ، وإنما يخطئ أغلبهم في حمل هذا المعنى على جزئياته ، فيأتي الواحد منهم إلى أشد الباطل بطلاً ويفسر أنه الحق ، فلو حمل الحق هنالك على ما يراه الموصي حقاً لكان المعنى : وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقد حقاً وطالبه بالأخذ به ، وربما كان الآخر لا يعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصي ضرباً من التنازع ؛ لأن كلاماً يدعوا الآخر إلى مالا يرضاه ، وهو النزاع بعينه . فلا يصح حمل المعنى عليه . وإنما الذي يصح أن يقصد هو أن يوصى كل واحد صاحبه بتحري الحق في ما يعتقد ، بأن ينبه إلى الحرص على البحث في الأدلة ، والتاطف في النظر للوقوف على الحق الذي هو الواقع لا يختلف فيه بعد معرفة وجهه » .

وفي تفسير جزء عم عند الكلام في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَلَامَ
كِتَابِ الْفُجَارِ لَفِي سِجَّين ﴾ من سورة المطففين ما يأتي :

« وقد رأيت في بعض كتب أهل البحث في اللغات أن الوحل يسمى في اللغة الإثيوبيّة (سنجون) بالجيم العجمية مع إمالة في حركة الواو ، ولا

يُخفى ما في معنى الوحل من التسفل . وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن ؛ فإن فيها كثيراً من الألفاظ الآيشوية لكثره المخالطة بينهم وبين أهل الحبشة، استعملوه فيما يقارب الوحل ، فلا يبعد أن يقال إن الكتاب فيه أى أنه مكتوب به ، أو على التصوير والتثليل . أى أن الأعمال التي تصور وتتمثل كأنها مكتوبة ، ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتاباً مرقوماً أن الأعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتاباً مرقوماً .

وفي تفسير السورة نفسها عند قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنَ » :

وقد رأيت عن بعض الباحثين في اللغات الشرقية أن لفظ علواً في اللغة الآيشوية (الحبشية القديمة) معناه النقش باللون الأحمر . فإن لم يكن العليون من العلو فهن الجائز أن اللفظ دخل في لغة اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة ، ثم أطلق على كل مزين لطيف . وقد يدل على ذلك تناقض البناء والوزن على ما هو من معنى العلو » .

٢ - أمثلة ما هو طريف بتنازعه في الفهم :

يقول الشيخ في تفسير جزء عم عند تفسيره الآية : « وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا كُلُّكُلُّ » في سورة « الشمس » :

« السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك ، وأنت إنما تتصور عند سماعك

لحفظ السماء هذا الكون ، الذي فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مداريهما ، وتتحرك في مداراتها . هذا هو السماء ، وقد بناه الله أى رفعه يجعل كل كوكب من الكواكب منه منزلة لمنه من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط به ، وشدّ هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة ، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تهاسك به » .

ويقول في تفسير سورة « الفيل » :

« وقد يبيّن لنا هذه السورة الكريمه أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطه فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيتعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه فأثار فيه تلك القرح التي تتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه . وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاك كه من البشر .

وإن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها .

وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا باربعها »

وفي تفسير سورة «الماعون» :

«والحضر على طعام المسكين : الحث عليه ودعوة الناس إليه ، والذى لا يحضر على إطعام المساكين لا يطعمهم في العادة . فقوله : ولا يحضر على طعام المسكين كنایة عن الذى لا يوجد بشئ من ملله على الفقير المحتاج إلى القوت ، الذى لا يستطيع له كسباً ، وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه ، بل هذا هو الملحق الذى يجوز الإعراض عنه وتأدبه بمنعه ما يطاب . وإنما جاء بالكنایة ليغيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه ، وفيه حثٌ للمصدّقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم ، وهي طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت في الكتاب ... »

وجاء في سورة الناس :

«فالموسوسون قسّيَان : قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم . ولكل واحد من الناس شيطان ، وهي قوة نازعة إلى الشر تحدث منها في نفسه خواطرُ السوء . وإنما جعل الوسواس في الصدور على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب بما حواه الصدر عندهم . وكثيراً ما يقال إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله . وأفعال العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه »

* * *

هذه وجهة الأستاذ الإمام في دعوة الإصلاح الديني التي نهض بها ملخصاً جريئاً ولقي في سبيلها مالقى . وهي دعوة سامية بما قامت عليه من المبادئ ، سامية بما ترمي إليه من الأغراض الشريفة ، سامية أيضاً بما تحمل الأستاذ من أجلها من الآلام .
وننرجى أستاذنا في ختام القول بما ناجاه به صديقه المرحوم إسماعيل

صبرى باشا :

ألا نَمْ معَ الْأَبْرَارِ فِي الْخَلَدِ نَاعِمٌ فَكَمْ بَتَ فِينَا سَاهِرَ الْعَزْمِ عَانِي

اعلام الإسلام

- ١ - عمرو بن العاص **لهم ساز عباس محمود العقاد** صدر في مارس سنة ٤
- ٢ - منصور الأندلس « على أدهم » « ابريل »
- ٣ - بشار بن برد « ابراهيم عبد الفادر المازني » « مايو »
- ٤ - المعز الدين الله « ابراهيم جبريل بك » « يونيو »
- ٥ - محمد عبده للدكتور عثمان أمين « يوليه »
- ٦ - أبو نواس **لهم ساز عبد الرحمن صدقي** « أغسطس »
- ٧ - مهدي الله « توفيق احمد البكري » « سبتمبر »
- ٨ - محمد على الكبير « توفيق غربال بك » « أكتوبر »
- ٩ - الفارابي **لهم ساز عباس محمود** « نوفمبر »
- ١٠ - قاسم أمين « احمد هاكي » « يناير سنة ١٩٤٥ »
- ١١ - ابن رشد الفيلسوف **لهم ساز محمد يوسف موسى** « فبراير »
- ١٢ - الإمام الشافعى طعلى مصطفى عبد الرزق باشا « ابريل »

الكتاب الثالث عشر

يظهر في الشهر التالي



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

893.799

Shl34

4999 P144

DEC 6 1949

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58846336

893.799 Sh134

imam al-Shafi'i.